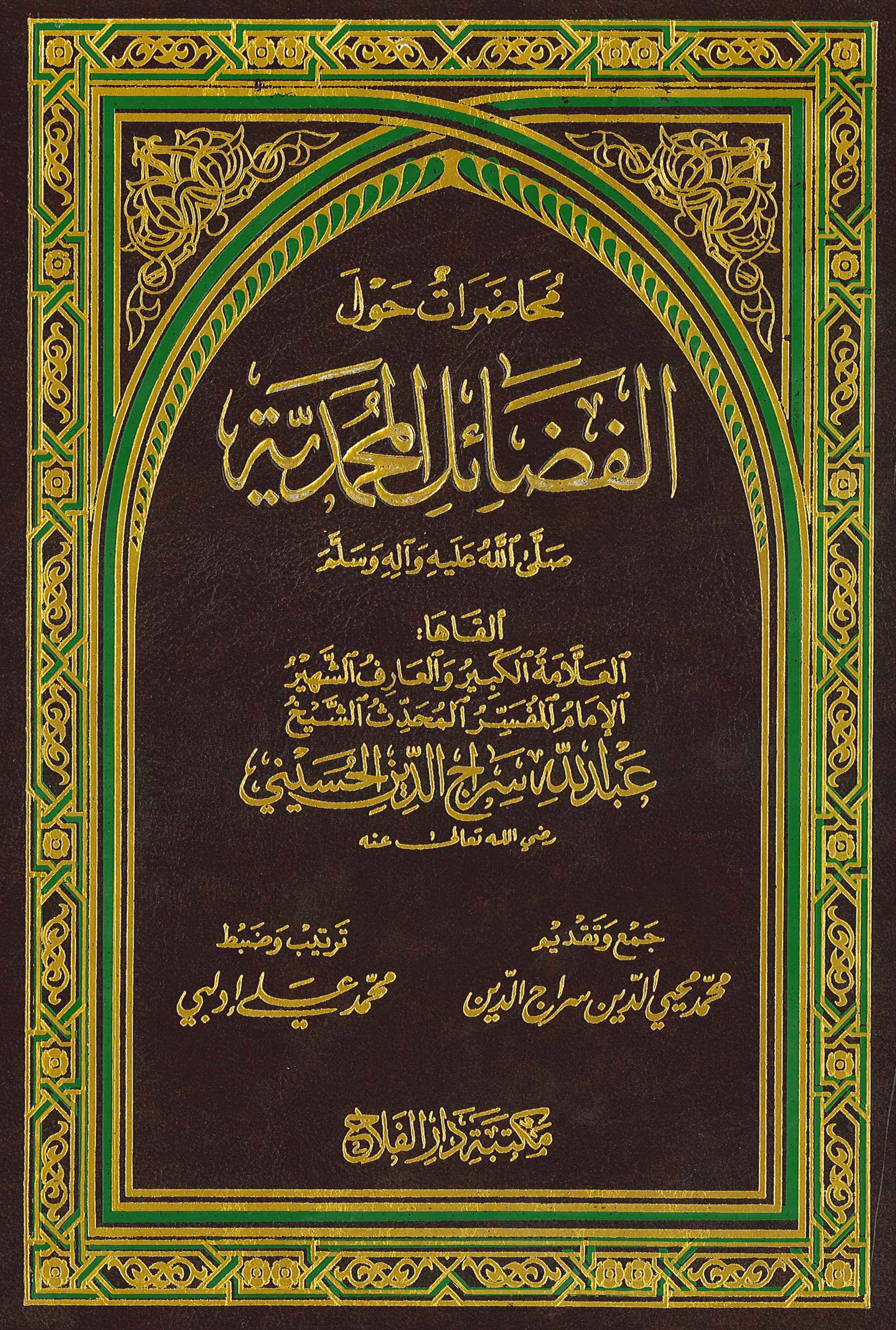
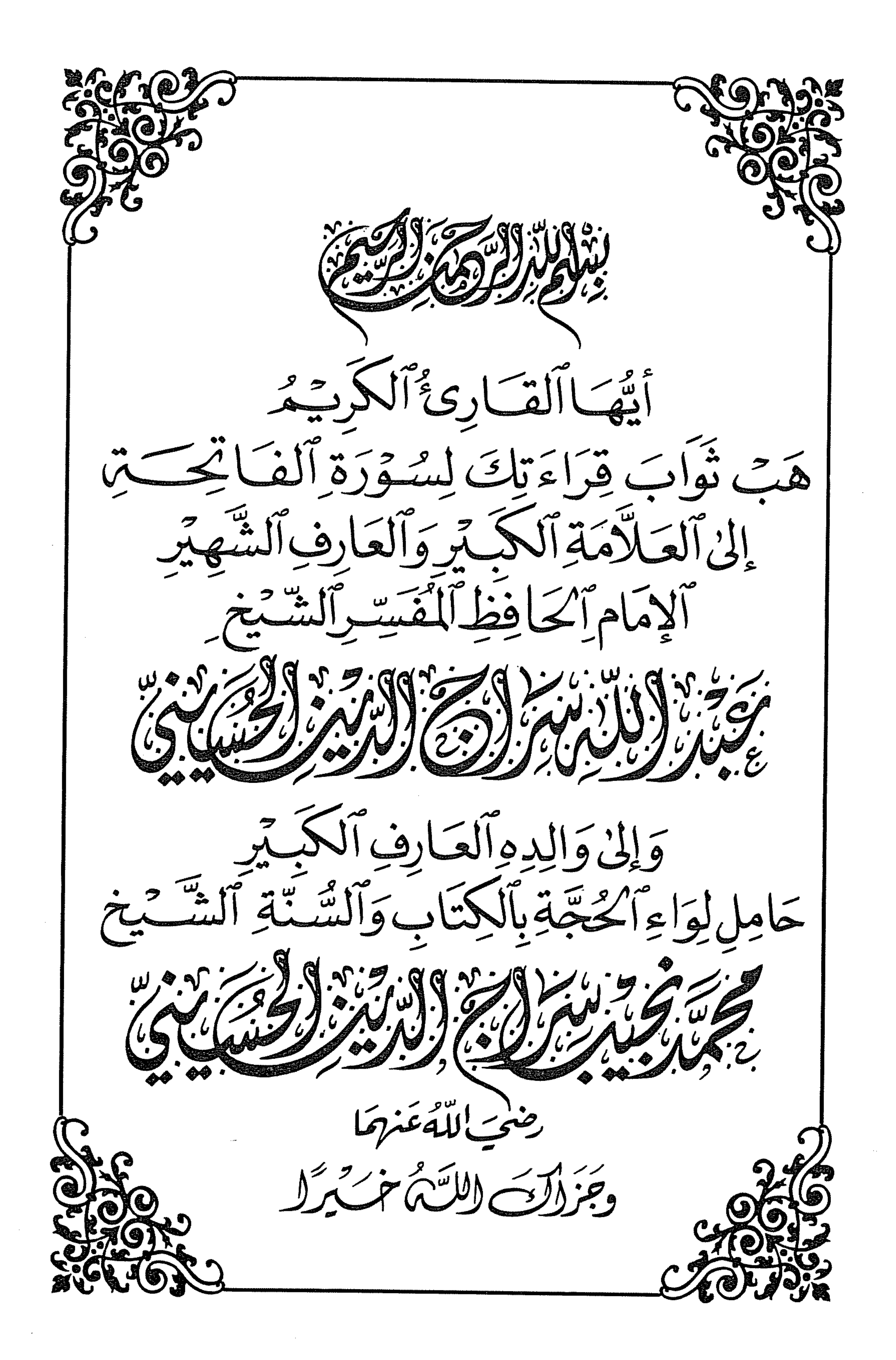

محاضرات حول
الفضائل المحمدية
صلى الله عليه وآله وسلم
ألقاها:
العلامة الكبير والعارف الشهير
الإمام المفسر المحدث الشيخ
عبدالله سراج الدين الحسيني
رضي الله تعالى عنه
جمع وتقديم
محمد محيي الدين سراج الدين
ترتيب وضبط
محمد علي ادلبي
مكتبة دار الفلاح



بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم

هب ثواب قراءتك لسورة الفاتحة

إلى العلامة الكبير والعارف الشهير

الإمام الحافظ المفسر الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

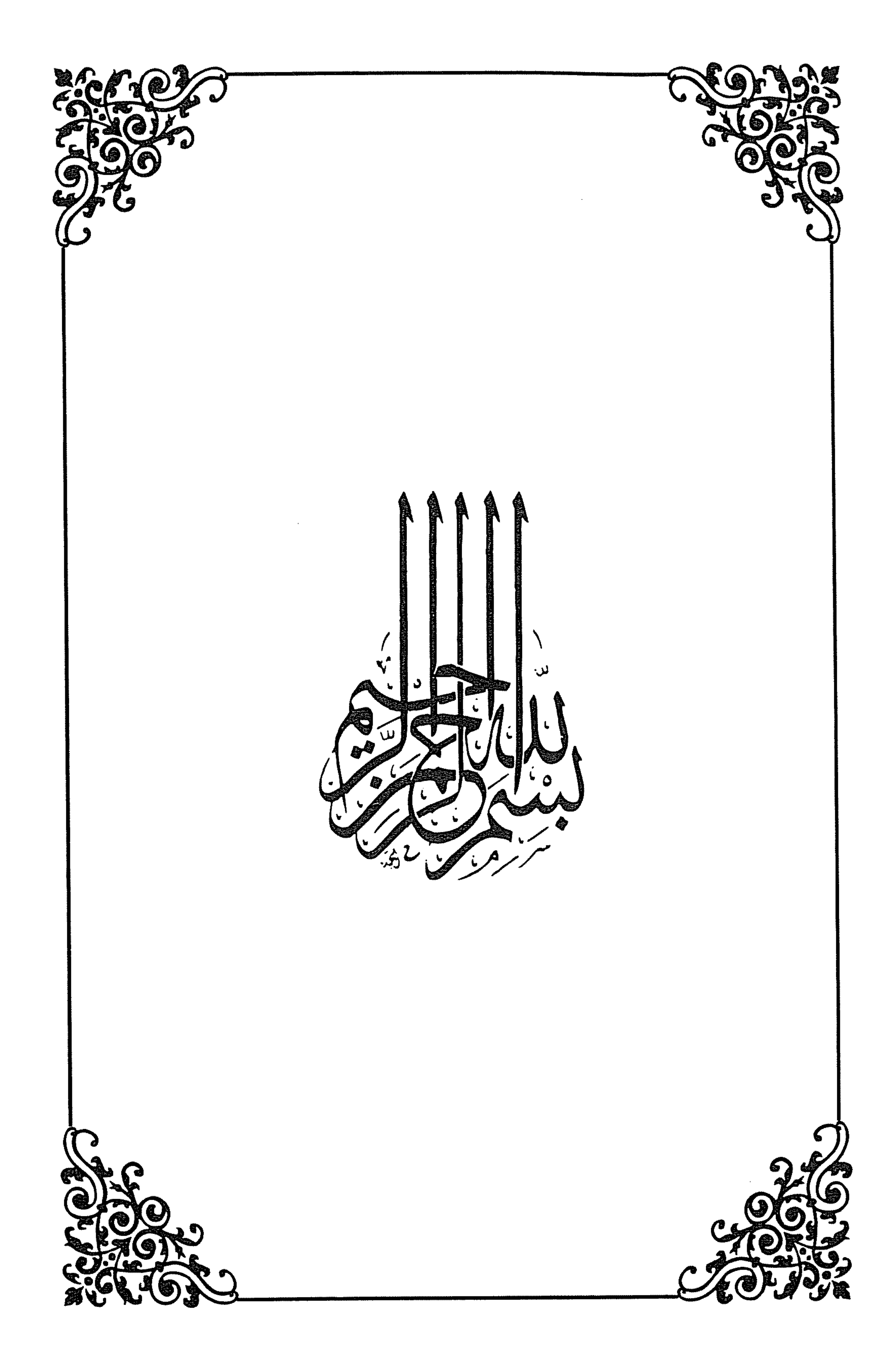
وإلى والده العارف الكبير

حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة الشيخ

محمد نجيب سراج الدين الحسيني

رضي الله عنهما

وجزاك الله خيرا


بسم الله الرحمن الرحيم

مُحاضَراتٌ حَوْلَ

الفضائل المحمدية

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

ألقاها:
ٱلعَلَّامَةُ ٱلكَبِيرُ وَٱلعَارِفُ ٱلشَّهِيرُ
ٱلإِمَامُ ٱلمُفَسِّرُ ٱلمُحَدِّثُ ٱلشَّيخُ
عبد الله سراج الدين الحسيني
رضي الله تعالى عنه

جَمْعُ وَتَقْدِيم
محمد محيي الدين سراج الدين

تَرتِيبُ وَضَبط
محمد علي إدلبي

يُطْلَبُ مِنْهُ: مكتبة دار الفلاح حلب - أقيول




الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م



مؤسسة

الشام للطباعة والتجليد

دمشق - هاتف: ٢٢٢٤٥٢٢٢٢٢٢ - ٢٢٤٩١٤٣٢٢٢ ص.ب ٢٥١٨٩

E-mail: oakkad@mail.sy

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

لقد كان مِن الإرث العلمي النافع الذي جَمعه الشيخ الإمام رضي الله عنه: البحث في شمائل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخصاله المجيدة، وقد صنف فيه كتاباً واسعاً سمّاه: (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: شمائله الحميدة وخصاله المجيدة) وكان لهذا الكتاب منزلة كبيرة في نفسه، ومكانة عظيمة عنده، وكان يحتسبه قربة إلى رضا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

ومن كلامه رضي الله عنه: يجب على كل مسلم أنْ يقرأ هذا الكتاب؛ حتى يتعرف إلى بعض شمائله الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم، وخصاله وخصائصه صلى الله عليه وآله وسلم ولو إجمالاً، حتى تصحّ شهادته بأنّ سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويُقبلَ إيمانه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ شرف الرسول على شرف مُرسله، فلابدّ إذاً مِنَ التعرف على شيء مِمَّا

خصّ الله تعالى به سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وفضّله به على سائر الأنبياء والمرسلين.

قال سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[المؤمنون: ٦٩] أي: ما عرفوا له قَدره وفضله وحرمته.

وقال جلّ وعلا: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧].

وقد جمعتُ في هذا الكتاب ما عثرت عليه من محاضرات كان شيخنا الإمام رضي الله عنه قد ألقاها في جامع بانقوسا، وتناول فيها البحث في شمائل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفضائله وخصائصه صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم بَيِّنَةُ الله العظمى، وحجته الكبرى على خلقه.

فلقد أرسل الله سبحانه رسله إلى الخلق يدعونهم إلى توحيده جلّ وعلا وعبادته، وأيّدهم بالبينات الدالة على صدقهم، وحقيقة ما جاؤوا به، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد:٢٥] وهي: البراهين والأدلة العقلية القاطعة، والمعجزات الكونية التي تُثبت حقيّة ما دعا إليه الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام.

وإنَّ كل بينة أيّد بها سبحانه رسولاً مِنْ رسله؛ فقد أيّد بها رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً، وزاد عليهم بِبَيِّنات لَم يأت بها مَنْ قبله.

وقد تنوّعت بينات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآيات وشواهد صدقه، حتى سمّاه الله تعالى: ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ فقال: ﴿لَمْ

يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾[1].

وإنّ شأن البينة أَنْ تكون ظاهرة الصدق في نفسها، مظهرة للصدق في غيرها، ولذلك سُمِّي الشهود العدول الثقات الأخيار بـ: **البينة**، فلا تقبل شهادة شاهد إلاّ إذا كان ثقة صادقاً، مشهوراً بالصلاح والتّقى، ظاهر الصدق في نفسه، حتى تقبل شهادته في غيره، وتترتب عليها أحكام وحدود و...

ومن هذا المبدأ؛ فلقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ظَاهِرَ الصدق في نفسه وذاته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم وأظهر ذلك أيضاً فيما جاء به من معجزات وخوارقِ عاداتٍ كثيرة متنوّعة.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم ظاهر الصدق في خَلْقه الكريم، وصورته البهيّة، وطلعة وجهه السنيّة صلى الله عليه وآله وسلم.

وظاهر الصدق في خُلُقه العظيم، وفي سيرته، وسائر شمائله وخصائصه صلى الله عليه وآله وسلم. وانظر تفاصيل ذلك في كتاب سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شمائله الحميدة وخصاله المجيدة، لشيخنا الإمام رضي الله عنه.

كما أَنّ شواهد صِدقه وحقيّة رسالته صلى الله عليه وآله وسلم ظهرت فيما جاء به من معجزات، وأعظمها: القرآن الكريم، الذي أعجز الخلق كلهم بنصوصه وبلاغته، وإخباراته وأحكامه، وبوجوه من الإِعجاز لا تُحدّ ولا تستقصى.

---

(١) البَيِّنَة هي: الدلالة الواضحة، سواء كانت عقلية علمية؛ أو ماديّة محسوسة.

وهناك المعجزات الكونية والآفاقية والنفسية المتنوعة، والتي تَدل دِلالة قاطعة على أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو رسول الله حقاً، وهذا ما يتجلى واضحاً للقارئ الكريم لهذا الكتاب.

وأسأل الله تعالى أَن ينفع به أصناف العباد في آفاق البلاد، وأن يجعل ثواب ذلك في صحيفة شيخنا الإمام رضي الله عنه، وكتاب أعماله الواسع، إنه هو السميع المجيب. آمين

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

والحمد لله رب العالمين

وكتبه

محمد محيي الدين سراج الدين

* * * * *

❖ المحاضرة الأولى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

﴿**بسم الله الرحمن الرحيم** (١) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢) ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣) مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين.

الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

[آل عمران: ١٦٤]

امتنّ الله تعالى على العباد ببعثة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وبيّن الحكمة في إرساله عليه الصلاة والسلام، وذلك أنّ الله

تعالى أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم لأجل أَنْ يتلو عليهم آيات الله تعالى، ويزكيهم، ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وهذه مِن جملة مواقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم، لأنه تعالى أرسل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم وله معهم مواقف؛ تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة. وقد جاء بيان هذه المواقف المحمدية مع العالم في عدة من الآيات القرآنية، فمن جملة هذه المواقف:

أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء بيّنة الله الكبرى على العالمين، وهذا ما ذكره سبحانه في سورة البينة: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

وهذه البينة هي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أرسله الله تعالى بيّنة جامعة لكلّ بينة، وقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم، أنه ما من رسول أرسله إلاّ وقد أيّده بالبيّنات. أي: بالبراهين العقلية الدامغة، والمعجزات الكونيّة الدالّة على صدق نبوّته ورسالته.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥].

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد سمّاه الله تعالى بـ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، فقد جاءت الرسل بالبينات، وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو البيّنة.

وهذا لأنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء بالبيِّنات التي جاءت بها الرسل قبله، ولأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جاؤوا بالبينات

حجة على قومهم، فظهرت براهين نبوة الرسل ببيّناتهم، ثم أخبر كل نبيّ وكل رسول أمّته أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله، وأنه خاتم النبيّين، وأَمَر قومه أن يُؤمنوا بهذا الرسول الكريم قبل ظهوره في هذا العالم الدنيوي، فجميع الرسل وبيّناتهم شهدت أنّ سيدنا محمداً رسول الله، ولهذا سمّاه الله تعالى ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ فقال: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾.

فقد أعطى الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام بَيِّنات، ومن بيناته ومعجزاته: أنه كسّر الأصنام التي كان قومه يعبدونها، كَسَّرها وحده بالفأس، مستعيناً على ذلك برب العالمين، وحفظه الله تعالى مِنْ أذى قومه وشرورهم، وكانت تلك الأصنام كبيرة ضخمة؛ متمكّنة في الأرض، فكسرها كلها في مدة وجيزة. وهذا قوله تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧ـ٥٨]. وقال سبحانه: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣].

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد دخل المسجد الحرام لمّا فتح مكة، وكان حول الكعبة وقتئذ ثلاثمائة وستون صنماً، إذ كان لكل جماعة من المشركين صنم أو أصنام، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأتي كل صنم وفي يده الشريفة عُرجون من النخل، فيقف إلى جانب الصنم ويشير إليه بعرجون النخل، ويقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] فَيَخِرُّ الصنم على وجهه، وينكسر ويتحطّم، حتى أتى

صلى الله عليه وآله وسلم على جميع الأصنام وحطّمها بهذا الشكل، ولم يَحتج إلى فأس أو غير ذلك[1].

فإذا كان سيدنا إبراهيم عليه السلام قَد كَسّر الأصنام بالفأس مستعيناً بقوة الله تعالى، فإنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كسر الأصنام بالإشارة إليها بغصن النخل، مستعيناً بقوة الأسرار القرآنية الربانيّة، وهذه البينة التي ظهرت على يدي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي أعظم مِنْ بيّنة الخليل عليه الصلاة والسلام في تكسيره للأصنام.

كما أن الله تعالى قد أعطى سيدنا موسى الكليم عليه الصلاة والسلام بينات مرئية مشهودة، وبينات عقلية: مِنْ براهين قاطعة، وحجج ساطعة، وأعطى سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ما هو أعظم من ذلك.

فمن جملة معجزات سيدنا موسى عليه السلام: أنّ الله تعالى أيّده بالعصا واليد البيضاء، وانفلاق البحر، وتفجير الماء من الحجر، كل ذلك آيات بَيّنات تشهد أنّ سيدنا موسى هو كليم الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

فإن كان سيدنا موسى ضرب البحر بعصاه فانفلق، ومشى فيه سيدنا موسى عليه السلام وقومه، وأمر الله تعالى البحر وقتئذٍ أن يأتمر بأمر موسى عليه السلام، فلمّا ضربه بالعصا ٱنشقّ وصار فيه اثنا عشر

---

(١) كما في صحيح البخاري في كتاب المظالم (٢٤٧٨) وصحيح مسلم في كتاب الجهاد (١٧٨١) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

طريقاً، وعَبَرَهُ سيدنا موسى ومن معه من بني إسرائيل، حتى إذا وصلوا إلى الجهة الأخرى أراد سيدنا موسى عليه السلام أن يضرب البحر ليعود كما كان، إلا أنّ الله تعالى أمره أن يتركه حتى يدخل فيه فرعون وقومه كلهم، قال سبحانه: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] حتى إذا دخل فرعون وقومه ضرب سيدنا موسى البحر فأغرقهم كلهم.

فإن الله تعالى الذي أعطى ذلك كله لموسى عليه الصلاة والسلام، قد أعطى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم انشقاق القمر[(١)]، وهذه بينة أعظم من انشقاق البحر، لأنّ البحر جزء من عالم الأرض، وعاين انفلاقه جماعة من الناس؛ وهم بنو إسرائيل، أَمّا انشقاق القمر نصفين متباعدين فهو آية أعظم، لأنّ جرم القمر أكبر وأعظم من جرم البحر الذي شقه موسى عليه الصلاة والسلام.

كما أَنّ انشقاق القمر آية كبرى، شاهدها أهل مكة كلهم، وشاهدها أيضاً مَنْ كان خارج مكة مِنْ قريب أو بعيد.

كما أَنّ انشقاق القمر لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن خوفاً مِن قريش، ولم يكن خاصاً بهم، وإنّما كان آية عامة، وبيّنة كبرى لكل العالمين، تَشهد لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أَنه رسول الله حقاً، فهي بيّنة على صدق نبوّته ورسالته، وهي

---

(١) ينظر الخبر في المسند (١/٣٧٧ و٤١٣ و٤٤٧) وصحيح البخاري في آخر كتاب المناقب (٣٦٣٦) وبعده، وصحيح مسلم كتاب المنافقين، باب انشقاق القمر (٢٨٠٠) والحلية لأبي نعيم وغيرها.

بينة على أنه صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين، وأنه الرسول المبعوث آخر الزمن.

وهي بيّنة تُصَدِّق ما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قيام الساعة وقربها، وأنّ أمر الساعة وخراب العالم لابدّ منه، فأراهم بيّنة صادقة على أنَّ خراب العالم أمرٌ ممكن.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

وهذا لمّا جاء جماعة من المشركين منهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والنضر بن الحرث، فقالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنْ كنت صادقاً فَشُقّ القمر فرقتين ـ أي: نصفين ـ وأرادوا معاجزته عناداً منهم، وظنوا أنّ هذا الأمر لا يقع.

فقال لهم: «إن فعلت تؤمنوا»؟ قالوا: نعم.

فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة حوله ـ وذلك ليلة البدر ـ فدعا الله تعالى فانشقّ القمر، وتباعد نصفين مدة من الزمن، حتى عاين ذلك أهل مكة كلهم، ومن كان خارج مكة، ثم أشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى القمر فعاد والْتَأمَ كما كان. فآمن بعض المشركين، وعاند بعضهم فقال: سَحَرَنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا محمد فإنّه لا يستطيع أن يسحر الناس.

وفي رواية[1] أنهم قالوا: فَسلوا السّفَّار ـ جمع مسافر ـ فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، فإنه لا يستطيع أن يَسحر الناس كلهم، فسألوا السّفّار وقد قَدِموا من كل وجه، فقالوا: رأيناه، فقال الكفار: هذا سحر مستمرّ ـ أي: أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد سحر كل من نظر إلى القمر ـ وهذا قوله تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

ولقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[2] ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى.

وفي رواية[3]: «فَسَبَقْتُها كما سبقت هذه هذه».

فلمّا بُعث صلى الله عليه وآله وسلم وانشق القمر، كان آية شاهدة بصدق نبوته ورسالته، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين، وأنّ الساعة تقوم آخر الزمن في أمته، لذلك قرن سبحانه اقتراب الساعة بانشقاق القمر، ليبيّن أنّ أمر هذا العالم ومآله إلى الخراب، فكما قَبِل القمر الانشقاق فهو يقبل التفتّت والخراب، وكذا سائر النجوم والأجرام، وهذا ما سيحصل عند قيام الساعة.

ولقد جاء سيدنا موسى عليه السلام بتفجير الماء من الحجر كما أخبر سبحانه: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ

---

(١) في دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٦٦).

(٢) كما في صحيح البخاري كتاب التفسير، باب /٧٩/ (٤٩٣٦) عن سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنه، ومسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٣) في سنن الترمذي كتاب الفتن، باب /٣٩/ (٢٢١٤).

﴿ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] وذلك لأنهم كانوا اثنتي عشرة سبطاً ـ أي: قبيلة ـ فتفجرت عيون الماء على عدد أسباطهم، حتى لا يختلفوا ويقتتلوا مع بعضهم، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

وإذا كان موسى عليه السلام ضرب الحجر فتفجرت منه المياه، فإن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم تفجّرت المياه من بين أصابعه الشريفة، حتى ارتوى القوم وتزوّدوا على كثرة عددهم، وهذه بيّنة أعظم وأكبر. وقد حصل هذا في عدة مناسبات:

ففي الحديث عن سالم عن جابر رضي الله عنه قال: عَطِش الناس يوم الحديبية، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين يديهِ رِكوة، فتوضأ منها ثم أقبل الناس نحوه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما لكم»؟

قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به، ولا نشرب؛ إلا ما في ركوتك.

قال: فوضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون.

قال: فشربنا وتوضأنا.

فقلت لجابر رضي الله عنه: كم كنتم يومئذ؟

قال: لو كنّا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة[1].

---

(١) كما في المسند (٣/٣٢٩) وصحيح البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٦).

وهذا الماء الذي نبع من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم هو أفضل المياه على الإطلاق، لأنّ الماء يَشرف على شرف مَعِيْنِهِ ويَنْبُوعِهِ، ولا مَعِين ولا ينبوع أشرف وأكرم من جسم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهنيئاً للصحابة الذين شربوا من ذلك الماء، لأنّ كل خير وسعادة فيه.

وإذا كانت الينابيع تتفاضل وتتفاوت في خصائصها وفضائلها، فإن كل الخصائص والفضائل قد اجتمعت في ذلك الماء الذي تفجّر من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم؛ على وجه لا يقارَن به ماء آخر.

ومن هذا تَعلم أنّه صلى الله عليه وآله وسلم فيّاض بالخيرات المعنوية الروحية، والخيرات الحسّية الماديّة، فهو صلى الله عليه وآله وسلم منبع الخيرات والبركات؛ على اختلاف أنواعها، فلما احتاج الصحابة رضي الله عنهم للماء أفاض عليهم الماء، ولما احتاجوا للغذاء أفاض عليهم الغذاء، وهذا ما حصل يوم الخندق.

فقد روى الشيخان[1] عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لمّا حُفِر الخندق رأيت بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم خَمصاً شديداً ـ أي: جوعاً شديداً ـ فانكفأت إلى امرأتي فقلت لها: هل عندك شيء، فإني رأيت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمصاً

---

(١) البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٤١٠١)، ومسلم في كتاب الأشربة، باب /٢٠/ (٢٠٣٩).

شديداً، فأخرجت إليّ جراباً فيه صاعٌ من شعير، ولنا بُهيمة داجن ـ بالتصغير أي: شاة صغيرة ـ فذبحتها، وطحنت الشعير، ففرغت إلى فراغي، وقطعتها في برمتها، ثمّ وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقالت: لا تفضحني برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه ـ يعني: لأنّ الطعام قليل لا يكفي إلا النفر القليل ـ.

فجئته فساررته فقلت: يا رسول الله إنا قد ذبحنا بُهيمة لنا، وطَحَنت صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت في نَفَرٍ معك.

فصاح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «يا أهل الخندق إنّ جابراً قد صنع لكم سؤراً ـ أي: طعاماً ـ فحيّ هلا بكم» ـ وقد مرت عليهم عدة ليال لم يتمكنوا من الطعام لانشغالهم في حفر الخندق ورصد الأعداء ـ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تُنْزلنّ برمتكم، ولا تخبزنّ عجينكم حتى أجيء».

فجئت وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقدم الناس، حتى جئت امرأتي، فقالت: بك وبك.

فقلت: قد فعلتُ الذي قلتِ لي، فأخرجَت له عجينتنا فبصق فيها وبارك، ثم عمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى برمتنا فبصق فيها وبارك.

ثم قال: «ادعي خابزة فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم ولا تُنزلوها» وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا ـ أي: شبعوا وانصرفوا ـ وإن بُرمتنا لتغطّ ـ أي: تغلي وتفور ـ كما هي، وإنّ عجينتنا لتخبز كما هو.

ولقد أعطى الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام اليد البيضاء بيّنة على صدقه، قال سبحانه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢] فكان سيدنا موسى عليه السلام يمدّ يده اليمنى من مدخل عنقه إلى إبطه الأيسر مروراً بجهة القلب، ثم يخرجها فإذا هي بيضاء نيّرة، وذلك حتى يرى قومه نور شريعته التي جاء بها.

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد جاء بنور قاهر باهر ظاهر في طلعته البهيّة صلى الله عليه وآله وسلم، ظهور الشمس في ضحى النهار، وكالقمر ليلة البدر.

فكان النور يخرج من بين ثناياه الشريفة، ويتدفق حين كلامه صلى الله عليه وآله وسلم، وكان هذا النور المحمديّ ينعكس في أصحابه رضوان الله تعالى عليهم، فيستنيرون بأنواره الكريمة، وهذه البينة أعظم من بيّنة الكليم عليه الصلاة والسلام.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه»[١] صلى الله عليه وآله وسلم.

وقالت الربيّع بنت معوِّذ رضي الله عنها لأحد التابعين: «يا بنيّ لو رأيته صلى الله عليه وآله وسلم رأيت الشمس طالعة»[٢].

فطلعته صلى الله عليه وآله وسلم طلعة الشمس في رونق النهار.

وقد تواترت هذه الأوصاف لطلعته البهية صلى الله عليه وآله وسلم، تواترت عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) المسند (٢/ ٣٨٠)، والترمذي في كتاب المناقب، باب /٢٦/ (٣٦٥٠).

(٢) سنن الدارمي في المقدمة.

فعن طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه قال: لما أظهر الله الإسلام خرجنا من الرَّبذة ومعنا ظعينة لنا ـ أي: امرأة ـ حتى نزلنا قريباً من المدينة، فبينما نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان ـ أي: رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكنهم ما كانوا يعرفونه من قبل ـ فسلّم علينا فقال: «مِنْ أين القوم»؟ فقلنا: من الرَّبذة، ومعنا جمل أحمر.

فقال: «تبيعوني هذا الجمل»؟ فقلنا: نعم.

فقال: «بِكَم»؟. فقلنا: بكذا وكذا صاعاً من تمر قال: «أخذته».

وما استقصى. فأخذ بخطام الجمل، فذهب به حتى توارى في حيطان المدينة، فقال بعضنا لبعض: تعرفون الرجل؟

فلم يكن مِنْ أحد يعرفه، فلام القوم بعضهم بعضاً فقالوا: تعطون جملكم مَنْ لا تعرفون؟ ـ أي: أخذ الجمل ولم يضع عندهم رهناً ـ.

فقالت الظعينة: فلا تلاوموا، فلقد رأينا رجلاً لا يغدر بكم، ما رأيت شيئاً أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه ـ ولم تكن تعلم مَنْ هو، لكنها رأت النور الساطع في وجهه صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فلما كان العشيّ أتانا رجل فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أأنتم الذين جئتم من الرَّبذة؟ قلنا: نعم.

قال: أنا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم إليكم، وهو يأمركم أنْ تأكلوا من هذا التمر حتى تشبعوا، وتكتالوا حتى تستوفوا ـ أي: خذوا حقكم حتى تستوفوه على أكمل الوجوه ـ.

فأكلنا من التمر حتى شبعنا، واكتلنا حتى استوفينا، ثم قدمنا المدينة من الغد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائم يخطب

الناس على المنبر، فسمعته يقول: «يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك، وأختك وأخاك، وأدناك أدناك»[1] ـ أي: الأقرب فالأقرب من الأرحام ـ.

ثم إنّ هؤلاء آمنوا وبايعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما سئل البراء رضي الله عنه: أكان وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل السيف؟ ـ أي: في اللمعان ـ قال: (لا، بل مثل القمر)[2].

ولما سأل الحسن بن علي رضي الله عنهما خاله هند بن أبي هالة، أن يصف له سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخماً مفخماً، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر»[3].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا تكلّم رُئي النور يخرج من فمه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفلج الثَّنِيَّتَيْن، إذا تكلّم رُئي كالنور يخرج من بين ثناياه»[4].

ومن ذلك: حديث أبي قرصافة رضي الله عنه قال: كان بدء إسلامي أنّي كنت يتيماً بين أمي وخالتي، فكان أكثر ميلي إلى خالتي

---

(١) ينظر المستدرك (٢/٦١٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/٣٨٠).

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٥٢)، وسنن الترمذي كتاب المناقب، باب /١٧/ (٣٦٤٠).

(٣) كما في شمائل الترمذي.

(٤) عزاه في مجمع الزوائد (٨/٢٧٩) إلى الطبراني في الأوسط، وهو في دلائل البيهقي (١/٢١٥).

وكنت أرعى شُوَيْهَات لي. فكانت خالتي كثيراً ما تقول لي: يا بني لا تَمُرَّ إلى هذا الرجل ـ تعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيغويك ويضلّك. فكنت أخرج حتى آتي المرعى وأترك شويهاتي، ثم آتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا أزال عنده أسمع منه، ثم أَروح بغنمي ضُمراً يابسات الضروع.

وقالت لي خالتي: ما لغنمك يابسات الضروع؟ قلت: ما أدري.

ثم عدت إليه اليوم الثاني، ففعل كما فعل في اليوم الأول، غير أنِّي سمعته يقول: «يا أيها الناس هاجروا، وتمسّكوا بالإسلام، فإنّ الهجرة لا تنقطع مادام الجهاد».

ثم إني رُحت بغنمي كما رحت في اليوم الأول، ثم عُدت إليه صلى الله عليه وآله وسلم في اليوم الثالث، فلم أزل عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم أسمع منه، حتى أسلمت وبايعته، وصافحته بيدي، وشكوت إليه أمر خالتي وأمر غنمي.

فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «جئني بالشياه» فجئته بهن، فمسح ظهورهن وضروعهن، ودعا فيهن بالبركة؛ فامتلأن شحماً ولبناً. فلمّا دخلت على خالتي بهن قالت: يا بني هكذا فارعَ.

قلت: يا خالة ما رعيت إلاّ حيث كنت أرعى كل يوم، ولكن أخبرك بقصتي وأخبرتها بالقصة، وإتياني النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبرتها بسيرته وبكلامه.

فقالت: لي أمي وخالتي: اذهب بنا إليه، فأسلمتا وبايَعَتَا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم أنا وأمي وخالتي ورجعنا من عنده منصرفين قالت لي أمي وخالتي: «يا بُني ما رأينا مثل هذا الرجل، ولا أحسن منه وجهاً، ولا أنقى ثوباً، ولا أَلْيَنَ كلاماً، ورأينا كأن النور يخرج من فيه»[1] ـ أي: فمه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

وكانِ صلى الله عليه وآله وسلم يُمدّ أصحابه بالنور إنْ هم احتاجوا له.

فعن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال: خرجت ليلة مِنَ الليالي المظلمة، فقلت: لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشهدتُ معه الصلاة، وآنستُه بنفسي؛ ففعلتُ، فلما دخلت المسجد برقت السماء، فرآني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ياقتادة ما هاج عليك»؟ قلت: أردت ـ بأبي وأمي ـ أَن أؤنسك يا رسول الله.

فقال: «خذ هذا العرجون ـ عصاً ـ فتحصَّنْ به، فإنك إذا خرجتَ أضاء لك عشراً أمامك وعشراً خلفك».

ثم قال لي: «إذا دخلت بيتك رأيت مثل الحجر الأخشن». قال: فضربته حتى خرج من بيتي[2].

وفي رواية قال صلى الله عليه وآله وسلم له[3]: «فاضربه قبل أن يتكلم فإنه شيطان».

وهذا من معجزات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

---

(١) ينظر في مجمع الزوائد (٨/٢٧٩) و (٩/٣٩٥).

(٢) عزاه في مجمع الزوائد (٢/١٦٦) و(٩/٣١٨) للإمام أحمد (٣/٦٥) والطبراني.

(٣) في المسند (٣/٦٥).

وكرامة لقتادة رضي الله عنه، وكل كرامة لولي هي معجزة لنبيه، لأنه ما نالها إلا باتباعه لنبيّه.

وهذا العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يمشي على وجه الماء مع جيشه دون أَنْ يشق البحر:

روى البيهقي[1] عن أنس رضي الله عنه قال: جَهز عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ يعني جيشاً ـ واستعمل عليهم العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، قال: وكنت في غَزاته، فأتينا مغازينا فوجدنا القوم قد نذروا بنا، فعفوا آثار الماء ـ أي: عطّلوا ينابيع المياه ودمّروها ـ قال: والحر شديد، فجهدنا العطش ـ أي: اشتد علينا ـ ودوابنا، وذلك يوم الجمعة، قال: فلمّا مالت الشمس لغروبها صلّى بنا ركعتين ثم مدّ يده إلى السماء، وما نرى في السماء شيئاً. قال أنس رضي الله عنه: فوالله ما حطّ يده حتى بَعث الله ريحاً وأنشأ سحاباً، فأفرغت حتى ملأت الغُدُرَ والشعاب، فشربنا وسقينا واستقينا. ثم أتينا عدوّنا وقد جاوزوا خليجاً في البحر إلى جزيرة، فوقف العلاء رضي الله عنه على الخليج وقال: ياعليّ ياعظيم، ياحليم ياكريم. ثم قال: أجيزوا ـ أي: سيروا ـ باسم الله.

قال أنس رضي الله عنه: فأجزنا ما يبلّ الماء حوافر دوابّنا، وأصبنا العدوّ غيلة، فقتلنا وأسرنا وَسَبَيْنا، ثم أتينا الخليج، فقال مثل مقالته، فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابّنا. فلم نلبث إلاّ يسيراً حتى رُئي في دفنه ـ أي: توفيّ ـ.

---

(١) في دلائل النبوة (٦/٥٢).

قال: فحفرنا له وغسلناه ودفنّاه.

فأتى رجل بعد فراغنا من دفنه فقال: مَنْ هذا؟

فقلنا: هذا خير البشر هذا العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه.

فقال: إنّ هذه الأرض تلفظ الموتى، فلو نقلتموه إلى ميل أو ميلين إلى أرض تَقبل الموتى.

فقلنا: ما جزاء صاحبنا أن نُعرّضه للسباع تأكله.

قال: فاجتمعنا على نبشه، فلما وصلنا إلى اللحد إذا صاحبنا ليس فيه، وإذا اللحد مدّ البصر، نور يتلألأ.

قال أنس رضي الله عنه: فأعدنا التراب إلى القبر ثم ارتحلنا. نعم.. لقد نقلته الملائكة عليهم السلام.

وقد أمدّ سيدُنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أُسيدَ بن حُضَيْر وعَبّاد بن بِشر رضي الله عنهما أمدّهما بالنور:

فعن أنس رضي الله عنه، أنّ أسيد بن حُضَيْر ورجلاً من الأنصار ـ وهو عباد بن بشر ـ تحدّثا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة في حاجة لهما حتى ذهب من الليل ساعة، والليلة شديدة الظلمة ثم خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينقلبان، وبيد كل واحد منهما عُصيّة، فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افترق بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه، فَمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ إلى أهله[1].

---

(١) كما في طبقات ابن سعد (٣/٦٠٦)، وانظره في صحيح البخاري في كتاب الصلاة (٤٦٥)، والمناقب (٢٨٠٥).

وقال حمزة بن عمرو الأسلمي رضي الله عنه: أَسْرَينا ونحن في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة ظلماء دَحْمَسَة - أي: مظلمة شديدة الظلمة - فأضاءت أصابعي حتى جمعوا عليها ظهرهم وما سقط من متاعهم، وإنّ أصابعي لتنير[1] - وجعل يمدها لتضيء لهم - .

نعم.. كل ذلك بإمدادات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أفاض الأنوار والأسرار على أصحابه، فصاروا بفضله صلى الله عليه وآله وسلم مرايا نقية صافية، تنعكس فيها أنواره وأسراره صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد أكرم الله تعالى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام فكلّمه عند جبل الطور، وهذا من بيّنات سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، وأنه رسول الله وكليم الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

[الأعراف: ١٤٣]

فقد تجلّى سبحانه على موسى عليه السلام بنوع من التجلّي ونوع من التكليم والمناجاة. أمّا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد أكرمه الله تعالى بما هو أعظم من ذلك، فقد كلّمه الله تعالى

---

(١) عزاه في مجمع الزوائد (٩/٤١١) إلى الطبراني وقال: رجاله ثقات، ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٦/٧٩).

كِفاحاً بلا حجاب عند سدرة المنتهى؛ لا عند بقعة من بقاع الأرض، وكان تجلّي رب العالمين على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم تجلّياً بالرؤية والكلام.

فكان مقامه صلى الله عليه وآله وسلم أعظم من مقام سيدنا موسى الكليم عليه الصلاة والسلام، فهو صلى الله عليه وآله وسلم كليم الله، وصفيّ الله، وخليل الله، وحبيب الله تعالى.

ولمّا تجلّى سبحانه للجبل لم يثبت الجبل لهذا التجلّي؛ بل ساخ وصار دكّاً، قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ أي: بنوع من التجلّي، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿رَبُّهُۥ﴾ أي: ربّ موسى عليه السلام.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله عزّ وجلَ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ قال: فأومأ صلى الله عليه وآله وسلم بخنصره، قال: «فساخ»[1]. فبيّن صلى الله عليه وآله وسلم أنّ التجلّي كان يسيراً، ومع ذلك ساخ الجبل وذاب؛ رغم قساوته وصلابة صخوره. وقد ثبّت الله تعالى جسم سيدنا موسى عليه السلام من التّفتت، لكنه صعق ولم يثبت لمشهد الرؤيا، قال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ فكان جسم سيدنا موسى عليه السلام أقوى من الجبل.

وأمّا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد تجلّى الله تعالى عليه بالرؤية والكلام عند سدرة المنتهى، وإنّ التجلّي عند سدرة

---

(١) كما في المسند (٣/٢٠٩)، وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن (٣٠٧٦).

المنتهى هو أعظم وأكبر من التجلّي على جبل الطور، ومع ذلك فَقد ثبت صلى الله عليه وآله وسلم لهذا التجلّي العظيم؛ بتقوية من الله تعالى وإمدادٍ منه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٦-١٧]. قال الحسن وغيره: غشيها نور رب العالمين[١] أي: حين تجلّى سبحانه على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد غطّت أنوار ربّ العالمين عالم السدرة كلّه، على عظمة السدرة وضخامتها. وهي عالم كبير محيط بالسماء السابعة.

وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: لما تجلّى عليه رب العالمين بالرؤية، وكلّمه بلا حجاب، ورأى ربه بعيني بصره. واعلم أن رؤية رب العالمين سبحانه في عالم الدنيا لم تكن لأحد ولم يثبت لها أحد إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على وجه فرداني خاص في عالم أعظم وأكبر من هذا العالم وهو عالم السدرة. وقد روى أبو نعيم في الحلية، والحكيم الترمذي في النوادر، وغيرهما، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قال سبحانه: يا موسى إنه لا يراني حيّ إلا مات، ولا يابس إلا تَدَهْدَهَ، ولا رطب إلا تَفرق،

---

(١) انظر تفسير القرطبي والبغوي والآلوسي لهذه الآية الكريمة.

وإنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم» وذلك لأنّ الله تعالى يُنشئ أهل الجنة نشأة أخرى باقية، ويجعل فيهم الاستعداد والقابلية لأن يتجلى عليهم بالرؤية، فيرونه سبحانه حين يتجلى عليهم.

ولمّا كلّم الله تعالى موسى عليه السلام وتجلّى عليه بالرؤية ولم يثبت لها، كانت حواسّه ومداركه وقتئذ في غاية العظمة والاستحضار، حتى إنه كان يشهد ويسمع دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصمّاء مِنْ بُعْدِ عشرة فراسخ، وذلك لِمَا في التجلّي الإلّهي مِنْ آثار وانكشافات عالية.

وإذا كان هذا قد حصل لموسى عليه السلام عند تجلّي الحقّ عليه عند جبل الطور، فما بالك بمشهد التجلّي الأعظم الذي تجلّى به الله تعالى على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند سدرة المنتهى؟!!.

وما أعظم مداركه وحواسّه وسمعه وبصره صلى الله عليه وآله وسلم لمّا تجلّى الله عليه؟!!.

ولمّا رجع موسى عليه السلام إلى قومه بعد انتهاء مدة ميعاد الله تعالى له وتكليمه له، وتجلّيه سبحانه عليه، بقي مدة لا يستطيع أن يكلّم الناس لقوة أثر التجلّي عليه.

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد أعدّه الله تعالى وأمدّه، فثبت لذلك التجلّي، قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

ولم يتلعثم صلى الله عليه وآله وسلم أو يتلكأ، بل جعل يُخبر

قومه بما رأى وسمع. كل ذلك يدلّ على أن بيّنته صلى الله عليه وآله وسلم أعظم البيّنات، وأن معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم أعظم المعجزات، فهو فاتح النبوات، وقد جُمِعَتْ له وختمت به، فهو صلى الله عليه وآله وسلم حقاً بيّنة الله الكبرى الجامعة لكل بينة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

* * * * *

❖المحاضرة الثانية:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

﴿بسم الله الرحمن الرحيم ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين.

الحمد لله رب العالمين، تقدم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

لقد امتنّ الله تعالى على العباد ببعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وبيّن الحكمة في إرساله عليه الصلاة والسلام، وذلك أنّ

الله تعالى أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم وله معهم مواقف متعددة؛ تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، ومن هذه المواقف أنه جاء يتلو على الناس آيات الله تعالى، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

أما الكتاب فهو القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن ذكر العوالم كلها. وقد تقدّم الكلام على بعض العلوم القرآنية التي جاء بيانها بالأحاديث النبوية الشريفة.

ومن العلوم القرآنية: العلم بقضايا الإيمان، ومن القضايا الإيمانية: الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام، وتقدم الكلام موجزاً على الإيمان بالله تعالى، والأدلة والبراهين على ذلك.

أما الإيمان بالرسل فيتطلب منك أيها المؤمن أنْ تعتقد أن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم هُم خِيْرة الله تعالى من خلقه؛ نسباً وحسباً، وفضلاً وأدباً، وعقلاً وفطانة، اصطفاهم الله تعالى لنفسه، واختارهم على جميع خلقه، وجمّلهم بالكمالات النفسية، وأفاض عليهم العلوم والمعارف الإلّهية، وأرسلهم إلى العالم نصحاء أمناء، يدلّونهم على ما فيه سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، وأيّدهم بالبيّنات، وعصمهم من المخالفات. وقد تكلّمنا على بعض هذه الكلمات الموجزة فيما يتعلق بالاعتقاد بالرسل عليهم السلام[1].

أما تأييده سبحانه لرسله بالبينات فقد قال سبحانه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥] فلقد أيّد الله تعالى كل رسول ببيّنات.

---

(١) انظر بيان ذلك في الجزء الثالث من كتاب: محاضرات حول مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم، للشيخ الإمام رضي الله عنه.

والبينات : جمع بَيّنة، وهي: التي تَبِيْنُ بها الأمور، ويظهر بها الحقّ بيّناً واضحاً. وهذه البينات التي أيّد الله تعالى بها رسله تُثْبت وتبيّن أنهم حقاً رسل الله تعالى.

وتنقسم البينات إلى : البينات السمعية العقلية العلمية، والبينات الشهوديّة المرئية. ولا بيان يُرجى بعد العيان والبرهان.

فإما أن تكون البينة أمراً معقولاً تَسمعه الآذان، وتقبله العقول، وتعيه القلوب، وتنقطع به الحجة، وإما شيء عيانِيٌّ يراه الإنسان فلا يمكن أن ينكره.

فكل رسول جاء ببينات تُثبت أنه لا إلّه إلا الله، وأنه رسول الله حقاً من عند الله تعالى، لأنّ القضية قضية إيمان وشهادة، فكل رسول دعا قومه أن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله وأنه رسول الله، والإيمان والشهادة لابدّ أن تقوم على أمور قطعية، ولذلك قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: بالبينات القاطعة الدالة على أَنّ الله تعالى حقّ، وأن هؤلاء هُم رسل الله تعالى حقاً عليهم صلاة الله وسلامه.

ومن ذلك أَنّ الله تعالى أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه من الأقباط، وإلى بني إسرائيل، وأيّده بالبينات العقلية الدامغة، وهي الحجج والبراهين الدالة على أنه لا إلّه إلا الله، والبينات المشهودة الحسّية كالعصا واليد البيضاء وغيرها، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣ـ٢٤] يعني: إن كنتم توقنون أن هناك سماوات وأرضاً فينبغي أن تكونوا بوجود خالق السماوات والأرض أشد

وأعظم يقيناً، لأنّ العقل السليم يُثبت أنه لابدّ للمصنوع من صانع، ولابدّ للبناء من بانٍ، ولابدّ للمتحرك من محرّك، وهكذا...

فلو نظر الإنسان إلى بناء عظيم فإنه لا يتحاكم إلى عقله: هل هناك مَنْ بناه؟ أم أنه قام بنفسه؟ فإنّ هذا من الأمور المسلّمة البديهية، بل يقول في نفسه. إن هذا الباني رجل عظيم في علمه وذوقه حتى شيّد هذا البناء.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أي: ألا تستمعون إلى ما يقوله موسى عليه السلام؟!

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فذكر لهم الدليل النفسي بعد أن ذكر لهم الدليل الآفاقي. أي: تفكروا في أنفسكم فَمَنِ الذي أوجدكم بعد عدم؟.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تعقّلوا وتفكروا فيما تقولون: إن فرعون هو ربكم، فالرب: هو الذي يتصرف في المشرق والمغرب، فهل يقدر فرعون على ذلك؟!.

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ يعني: لمّا عجز فرعون عن الجواب، وقامت عليه الحجة والبرهان، راح يهدّد موسى وهارون بالسجن ﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: أتَلْجأ إلى التهديد والوعيد ولو جئتك بشيء ظاهر يَدل على صدق وأحقّية ما أقوله لك؟ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

فلما استكبر فرعون عن قبول الدليل العقلي على أنه لا إلّه إلا الله راح سيدنا موسى عليه السلام يُبيّن له الدليل الحسّي الشهودي، وهو انقلاب العصا إلى ثعبان كبير، وبياض ونور يده اليمنى إذا ضمّها إلى جناحه الأيسر، قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ وكأنه يقول: يا فرعون إن كنت تجحد البينة والبرهان الذي جئتك به، وتأبى إلا أن ترى نور شريعتي ظاهراً؛ فأنا أريك ذلك، فمدّ موسى عليه السلام يده اليمنى إلى جيبه الأيسر مروراً على قلبه، ثم أخرجها بيضاء لكل مَنْ نظر إليها؛ وفي هذا إشارة إلى صدق نور الشريعة التي جاء بها سيدنا موسى عليه السلام.

ولمّا أقام سيدنا موسى البينات العقلية العلمية على فرعون، وأظهر له البينات الشهودية المرئية وهي المعجزات، ظلّ فرعون على جحوده ولم يقبل الحق، وراح يتهم موسى عليه السلام بالسحر، وجيء بالسحرة مِنْ كل فجّ، ووعدهم فرعون بالأجور والقرب منه إنْ هم غلبوا موسى عليه السلام، فتصدى لهم سيدنا موسى عليه السلام وألقى عصاه فإذا هي تَلْقَفُ ما يأفكون. أي: أبطلت السحر الذي جاء به السحرة لمّا سحروا أعين الناس، وخُيّل إليهم أن الحبال والعِصِيَّ حيَّاتٌ تسعى، فلما ألقى موسى عصاه أبطلت ذلك كله؛ وظهرت الحبال والعُصيّ على حقيقتها.

ولمّا رأى السحرة أَنّ عصا موسى عليه السلام أبطلت عملهم، وتلقّفت ما ألقوه من السحر، أيقنوا حينذاك أَن القضية ليست قضية خيال وسحر، وإنما هي حق وحقيقة، وهي معجزة من رب العالمين، وما وسعهم إلا أن يسجدوا لله تعالى مؤمنين مذعنين للحق لمّا بان لهم.

قال تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ أي: بادروا للسجود مسرعين لِمَا رأوا من الحق.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

ولما سجدوا لله تعالى كشف الله لهم عن منازلهم في الجنة، وأراهم ذلك عياناً. وآمن مَنْ آمن مِنْ قوم فرعون، وكفر من كفر.

وهكذا أيّد الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام بالعصا التي تنقلب ثعباناً بين يدي فرعون، وتدنو منه لتفترسه، وبهذه العصا يضرب البحر فينفلق اثني عشر طريقاً، ليعبر عليه بنو إسرائيل، وبهذه العصا يضرب الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عين ماء ليشرب منه بنو إسرائيل، كل ذلك بقدرة الله تعالى.

ولمّا عبر موسى وقومه البحر ووصلوا إلى الجهة الأخرى، أراد أن يضرب البحر حتى يغلقه لئلا يلحق به فرعون وجنوده، فقال له سبحانه: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ ـ أي: مفتوح الفجوة ـ وكأنّ موسى عليه السلام تساءل: لِمَ لا يغلقه ويمنع فرعون من اللحاق به؟.

فأتاه جواب ذلك من رب العالمين ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي: لأنهم جُند مغرقون، فسيدخلون البحر ويتبعون موسى وقومه، حتى إذا صاروا كلهم في البحر انطبق عليهم ليغرقهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي: اتركه مفتوحاً لأجل أن يدخلوا فيه ويَغرقوا، لا ليلحقوا بك يا موسى. فصار البحر تحت أمر موسى، وسخّره الله تعالى له.

وكان من دعاء موسى عليه السلام لما ضرب البحر، ما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[1].

وإذا كان موسى عليه السلام يضرب الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً، على عدد أسباط بني إسرائيل، فإنّ الماء قد تفجّر من أصابع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمّا شكا الصحابة له العطش وقلة الماء يوم الحديبية.

ويضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صخرة كبيرة أَعْيَا الصحابة تحطيمها يوم حفر الخندق؛ فتتحطم بضرباته صلى الله عليه وآله وسلم رؤوس ممالك الكفار وقتئذ، وهي مملكة الروم، ومملكة الفرس، ومملكة صنعاء اليمن، لتصير هذه الممالك ملكاً للصحابة وأتباعه صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الإمام أحمد في مسنده[2]، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أَمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحفر الخندق.

قال: وعرض لنا صَخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول.

قال: فشكوها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال عوف ـ أحد رواة الحديث ـ

---

(١) عزاه في مجمع الزوائد (١٠/١٨٣) إلى الطبراني في الأوسط والصغير، عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) (٤/٣٠٣).

وأحسبه قال: وضع ثوبه، ثم هبط إلى الصخرة، فأخذ المعول فقال: «بسم الله» فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال: «الله أكبر أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا».

ثم قال: «بسم الله» وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر فقال: «الله أكبر أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا».

ثم قال: «بسم الله» وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر فقال: «الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا».

وأما تفجّر الماء من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم، فعن جابر رضي الله عنه قال: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين يديه رِكوة فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نَحوه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما لكم»؟

قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في رِكوتك.

قال: فوضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قال: فشربنا وتوضأنا.

فقلت ـ أي: سالم بن أبي الجعد ـ: كم كنتم يومئذ؟

قال: لو كنّا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة[1].

---

(١) كما في المسند (٣/٣٢٩)، وصحيح البخاري كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٦).

وروى الإمام البخاري رضي الله عنه، عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه[1] قال: أتيت جابراً رضي الله عنه فقال: إنّا يوم الخندق نحفر، فعرضت كيدة شديدة، فجاؤوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: هذه كُدْيَةٌ عرضت في الخندق.

فقال: «أنا نازل» ثم قام وبطنه معصوب بحجر ـ ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً ـ فأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم المِعْوَل فضرب في الكدية فعاد كثيباً أَهْيَلَ أو أهيم ـ أي: غير متماسك ـ.

فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت.

فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟

قالت: عندي شعير وعناق. فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم في البرمة. ثم جئت النبي صلى الله عليه وآله وسلم والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافيّ قد كادت أن تنضج، فقلت: طُعيّم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان.

قال: «كم هو»؟ فذكرت له. قال: «كثير طيّب».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنّور حتى آتي».

فقال: «قوموا» فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحكِ جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمهاجرين والأنصار ومن معهم.

---

(١) في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٤١٠١).

قالت: هل سألك؟ قلتُ: نعم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ادخلوا ولا تضاغطوا» فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويخمّر البرمة والتنّور إذا أخذ منه، ويقرّب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا؛ وبقي بقيّة.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كلي هذا وأَهْدِي فإنّ الناس أصابتهم مجاعة».

ولقد أيّد الله تعالى سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام بالبينات الكثيرة.. ومنها: أنه يُبرئ الأكمه والأبرص، ويَمْسح المرضى والزَّمْنَى فيبرؤون بإذن الله تعالى. كل ذلك أدلة وشواهد تشهد على صدق سيدنا عيسى وعلى نبوته عليه الصلاة والسلام.

ولقد أعطى الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إبراء الأكمه والأبكم، وإبراء الزَّمِن والمريض، وقد جاء في هذا الباب أحاديث ووقائع كثيرة جرت مع الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

فمن ذلك: ما رواه البيهقي[1]، أنّ امرأة جاءت بابن لها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تَحَرَّكَ؛ فقالت: يا رسول الله إن ابني هذا لم يتكلم منذ وُلِدَ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أدنيه» فأدنته منه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من أنا»؟ فقال: أنت رسول الله، ومِنْ تلك الشهادة فتح الله عليه باب الكلام.

---

(١) في دلائل النبوة (٦/ ٦١).

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم أعاد البصر لمن لا يبصر:

فقد روى ابن أبي شيبة، والطبراني، والبيهقي[1]، عن حبيب بن أبي فُويك[2] أنه كان راكباً على ناقته فوقع في حفرة فيها بيض حيّات، فأصاب عينيه رشة منها، فما عاد يُبصر بهما، فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنفث صلى الله عليه وآله وسلم في عينيه.

قال راوي الحديث: فرأيته يُدخل الخيط في الإبرة وإنه ابن ثمانين سنة، وإن عينيه لمبيضتان. وما ذلك إلا ببركة ريق النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى أحمد والترمذي وصححه، وابن ماجه وغيرهم[3]، عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه، أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ادع الله أن يعافيني.

فقال: «إن شِئْتَ دعوتُ لك، وإنْ شئت أَخَّرْتَ ذاك فهو خير».

فقال: ادعه. فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه فيصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهم شفعه فِيَّ».

وفي رواية[4]: فدعا بهذا الدعاء فقام وقد أبصر.

---

(١) ينظر في مجمع الزوائد (٨/٢٩٨)، والدلائل (٦/١٧٣).

(٢) كما في الإصابة.

(٣) المسند (٤/١٣٨)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب /١٢٩/ (٣٥٧٣)، وابن ماجه (١٣٨٥).

(٤) عند الحاكم في المستدرك كتاب الدعاء (١/ ٥٢٦).

وروى الطبراني وابن شاهين، عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أصيبت عينه يوم أحد، فوقعت على وجنته، فردها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فكانت أصح عينيه.

وفي رواية أنه أُصيبت عينه يوم بدر، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها فقالوا ـ أي: الصحابة ـ: لا. حتى نستأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: نرجع إليه ونعمل بمشورته ـ فاستأمروه؛ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا» ثم دعا به فوضع راحته على حدقته ثم غمزها فكان لا يدري أيَّ عينيه ذهب[1].

وهذا قتادة رضي الله عنه هو الذي أعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العرجون ـ وهو عصا قصير من النخل ـ وجعلت تُضيء له أمامه عشراً وخلفه عشراً، وكان يريد الذهاب إلى بيته في ليلة شاتية مظلمة، وقال له: «إذا دخلت البيت وتراءيت سواداً في زاوية البيت فاضربه قبل أن يتكلم فإنه شيطان»، ففعل ذلك رضي الله عنه[2].

كما تَفَلَ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عيني سيدنا علي رضي الله عنه يوم فتح خيبر، لَمَّا جيء به وهو أَرْمَدُ فبرئ كأنه لم يكن به وجع[3].

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان أبو ليلى يَسْمر مع عليّ

---

(١) ينظر مجمع الزوائد (٨/٢٩٧).

(٢) تقدم تخريجه ص /٢٥/.

(٣) كما في صحيح البخاري كتاب الجهاد والسِّيَر، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والبيعة (٢٩٤٢)، وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب /٤/ (٢٤٠٦).

رضي الله عنه، فكان يلبس ثياب الصيف في الشتاء، وثياب الشتاء في الصيف، فقلنا: لو سألته فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث إليّ وأنا أرمد العين يوم خيبر، قلت: يا رسول الله إني أرمد العين، فَتَفَلَ في عيني ثم قال: «اللهم أذهب عنه الحَرّ والبرد». قال: فما وجدت حراً ولا برداً بعد يومئذ[1].

ولما أصيب سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في ساقه يوم خيبر قال الناس: أصيب سلمة ـ أي: لم يعد يبرأ ـ قال سلمة: فأتِيَ بي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنفث فِيَّ ثلاث نفثات؛ فما اشتكيتها حتى الساعة[2].

وهذا خُبيب بن إساف رضي الله عنه يضربه أمية بن خلف على كتفه يوم بدر فينقطع طرفه، فيجيء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يحمل يده، فيردها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موضعها، ويبصق ويبارك عليها، فتلتئم وتعود يده أحسن مما كانت، ثم يعود خُبَيْبٌ إلى قتال الأعداء في نفس الغزوة، ويشترك مع جملة من الصحابة في قتل أمية بن خلف[3].

وفي (الإصابة): أخرج ابن حبان في صحيحه، والضياء في المختارة وقال: قال ابن منده: عمرو بن معاذ الأنصاري كان تفل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على رجله حين قُطعت حتى برأت.

---

(١) كما في المسند (١/ ٩٩ و١٣٣)، وسنن ابن ماجه (١١٧).

(٢) المسند (٤/ ٤٨)، وصحيح البخاري كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٤٢٠٦)، وسنن أبي داود كتاب الطب (٤٨٩٤).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ١٧٨).

نعم إن ذلك كله بقدرة الله رب العالمين، الذي أيّد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالمعجزات وخوارق العادات، ليكون ذلك كله من شواهد صدقه صلى الله عليه وآله وسلم وصدق ما جاء به.

وكل ذلك يندرج في خصائص ريق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي خصّه الله تعالى بالخصائص العالية في ذاته وذراته وسائر أجزائه وآثاره الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم، حتى إن ذراته صلى الله عليه وآله وسلم تنبع بالبركات والأسرار والأنوار، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتزاحمون على ماء وضوئه صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أظفاره وشعره ونخامته وريقه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، لِمَا يعلمون من فضائلها وخصائصها، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرّهم على ذلك ولا ينهاهم، بل إنه صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي أمر بتوزيع شعره على الصحابة الكرام لمّا تحلّل يوم حجة الوداع[١].

وهذه أم سليم رضي الله عنها تضع عَرَقَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قارورة لها للاستشفاء والتبرك والتطيب.

فعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها[٢] وليست فيه، قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها، فَأُتِيَتْ فقيل لها: هذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم نام في بيتك على فراشك.

---

(١) كما في صحيح مسلم كتاب الحج، باب بيان أن من السنة يوم النحر... (١٣٠٥).

(٢) وكانت مَحرماً له صلى الله عليه وآله وسلم لأنها خالته من الرضاع.

قال: فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه صلى الله عليه وآله وسلم على قطعة أديم على الفراش، ففتحت أم سليم عتيدتها[١] فجعلت تُنَشِّفُ ذلك العرق فتعصره في قواريرها، ففزع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: استيقظ من نومه ـ فقال: «ما تصنعين يا أم سليم»؟.

فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أصبت»[٢].

وهذه السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها تحتفظ بِجُبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا قصدها مريض غسلتها له وأعطته ماء الغسالة ليشرب منه، ويتبرك ويستشفي بها.

وروى الإمام مسلم عن عبد الله مولى أسماء، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، أنها أخرجت إليه جُبة طيالسة كسروانية[٣] لها لِبْنة ديباج[٤] وفرجاها[٥] مكفوفان بالديباج فقالت: هذه كانت عند عائشة رضي الله عنها حتى قُبِضَت، فلما قبضَتْ رضي الله عنها قبضتها ـ أي: أخذت الجبة ـ وكان النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) هو كالصندوق الصغير تجعل فيه المرأة ما يعزّ عليها من متاعها.

(٢) صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب طيب عرق النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتبرّك به (٢٣٣١). وله شاهد عند البخاري في كتاب الاستئذان (٦٢٨١).

(٣) نوع من الثياب لها علم وحاشية.

(٤) بكسر اللام وسكون الباء: رقعة ـ أي: قطعة ـ في جيب القميص.

(٥) قال الزرقاني: أي عمل على جيبها وكمّها كفاف من حرير، وكفة كل شيء: طرفه وحاشيته.

وسلم يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يُستَشفى بها[1].

أي: لمخالطتها لعرقه الشريف، وملامستها لبدنه الطيب المبارك صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا أنس بن مالك رضي الله عنه يحتفظ بنعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويتبرك به، ويُتْحِفُ ضيوفه بالتبرّك والاستشفاء به:

روى البخاري والترمذي في (الشمائل) عن عيسى بن طهمان قال: أخرج إلينا أنس بن مالك رضي الله عنه نعلين جَرْداوَين ـ أي: صقيلتين لا شعر عليهما ـ لهما قِبالان ـ تثنية قبال وهو: زمام النعل ـ قال ابن طهمان: فحدثني ثابت البناني بعدُ عن أنس رضي الله عنه، أنهما كانتا نعلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2].

والبحث في هذا الباب واسع كبير، تَجِدُ في كتاب: (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شمائله الحميدة وخصاله المجيدة) للشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه جملة منه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

---

(١) صحيح مسلم أول كتاب اللباس والزينة (٢٠٦٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما ذكر من درع النبي ﷺ.. (٣١٠٧).

❖المحاضرة الثالثة:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

لقد أخبر الله تعالى عن حال العالم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكيف أنهم كانوا في ضلال مستحكم بهم، لم يكونوا منفكين عنه حتى أرسل الله تعالى البيّنة الكبرى.

وما هي تلك البينة؟

قال سبحانه: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو البيّنة، وإنما سمّي بالبيّنة لأنه جامع لكل بينة جاء بها مَنْ قبله من الرسل كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥] أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد جاء هو

بَيِّنَةً، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء بكتاب وهو القرآن الكريم الذي أعجز الخلق عن الإتيان بمثله، وجاء بالمعجزات المتنوعة، كل ذلك بينات جامعة جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى سمّي بالبيّنة.

ولقد تقدم القول بأن بيّنته صلى الله عليه وآله وسلم تتجلّى في خَلْقه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وفي خُلُقه العظيم، وفي شرعه القويم، وفي كتابه المبين الذي أُنزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم، وفي المعجزات التي أجراها الله تعالى على يده صلى الله عليه وآله وسلم، كما تتجلى بينات صدقه صلى الله عليه وآله وسلم في علومه ومعارفه وإخباراته الغيبية.

كما أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم هو البينة، لأنه جمع بينات مَنْ قبله من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، فقد جاء كل رسول ببينات صَدّقت بها نبوتَه، وأيدت بها رسالَتَه، ثم أعلن أن سيدنا محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فكل نبي وكل رسول مُصدَّق بآيات ومعجزات تشهد له بالنبوة والرسالة، وكل منهم شهد أَنّ سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكل منهم أعلن أمام قومه وأعلَمَهم بأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكل منهم بشّر بأنه سيظهر سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكل هذه الإخبارات والنبوات شواهد صدق أَن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، جمع الله تعالى له نبوات مَنْ قبله. وقد تقدم البحث في هذا.

فلقد أعطى الله تعالى داود عليه السلام أنْ ألاَنَ له الحديد، قال سبحانه: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠] أي: صار بين يديه كالعجين، يتصرف به كما يشاء في صناعة الدروع.

ولقد أعطى الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أعظم من ذلك، فقد جعل له سبحانه الغصن اليابس حديداً ـ وهذا قلب حقيقة إلى حقيقة أخرى ـ كما روى البيهقي وأبو نعيم وأصحاب السِّيَرِ، أن عكاشة بن محصن رضي الله عنه، قاتل بسيفه يوم معركة بدر حتى انكسر سيفه، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأعطاه جِذْلاً من شجرةٍ، وفي رواية: عرجوناً ـ أي: غصن نخل ـ فقال: «قاتل بهذا» فصار في يده سيفاً شديد المتن، أبيض الحديد، طويل القامة، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين، ثم لم يزل عنده يَشهد به المشاهد والحروب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ حتى استشهد أيام حروب الرِّدَّة[1]. وكان ذلك السيف يسمى: القوي.

وقد انكسر سيف سلمة بن حريش رضي الله عنه يوم بدر، فبقي أعزل لا سلاح معه، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عُرجوناً فقال: «اضرب به» فصار في يده سيفاً، فقاتل به وبقي معه حتى قُتِلَ، وسيفه حديد[2].

---

(١) كما في طبقات ابن سعد (١/١٨٨)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/٩٨)، وكتب السيرة، وأسد الغابة.

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٣/٤٤٦)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/٩٩).

وفي ذلك برهان قاطع على أَنّ سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه ردّ على من يقول: إنّ طابع الأشياء ذاتية لها، بل إنّ طابع الطبائع وخالق الخلائق هو الله رب العالمين، الذي يتصرف بالأشياء كما يشاء، ومن هذا قلب العرجون اليابس إلى حديد، تأييداً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإكراماً له، وإِلاَنَةُ الحديد لداود عليه السلام، فليست الصلابة طبعاً ذاتيّاً للحديد، بل كل ذلك بيد الله تعالى.

واعلم أن المعجزات التي جاءت بها رسل الله عليهم السلام تدل على أن هناك رباً خالقاً مدبراً، يتصرف في خلقه كما يشاء، وتدل على صدق مَنْ جرت على يده على أنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

واعلم أيضاً أَنّ انقلاب حقيقة الشيء إلى شيء آخر يدل على أن المادة ليست ذاتيّة للموادّ، بل إنّ الله تعالى يُحوّل المادة من حال إلى حال بلحظة واحدة، أو يحوّلها ويطوّرها إلى مادة أخرى خلال مدة زمنية على مقتضى علمه وحكمته سبحانه. وهذا يدلّك على أن الله تعالى حقّ، وأنه يحوّل المواد كما يشاء، وأن الذي جرى الأمر على يده هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد أعطى الله تعالى سيدنا سُليمان عليه السلام مُلكاً، كما أخبر سبحانه عنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٥-٣٧].

فقد أعطاه الله تعالى مُلْكاً على الإنس والجن والطير، وسخّر له الريح.

وقد نال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما هو أعظم من ذلك، فقد عَرَض عليه ربنا سبحانه مقام المُلْكِ فاختار أن يكون نبياً عبداً، ولم يتصرف بمقام المُلْكِ كما هو مقتضى المَلِكِ، بل كان يتصرف بمقتضى مقام العبودية لله تعالى.

وإنّ سيدنا سليمان عليه السلام الذي أعطاه الله الملك كان يتصرف بمقتضى مقامه في الملك، أما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد ورد في الحديث الذي رواه الطبراني بإسناد حسن[1]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فأتاه إسرافيل عليه السلام فقال: «إن الله تعالى سمع ما ذكرت فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أَعرض عليك أن أُسَيِّرَ معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة، فإنْ شئت نبياً ملكاً وإن شئت نبياً عبداً.

فأومأ إليه جبريل أن تواضع ـ وهذا بأمر الله تعالى لجبريل عليه السلام، فقد خيره سبحانه واختار له المقام الأكمل ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «بل نبيّاً عبداً».

فاختار صلى الله عليه وآله وسلم مقام العبودية، لكن مقام الملك طُوِي له، وأُعْطِيَهُ صلى الله عليه وآله وسلم ولم يتصرف به، يدلك على هذا ما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن عفريتاً من الجن تفلّت

---

(١) مجمع الزوائد (٣١٥/١٠) في آخر كتاب الزهد.

البارحة ليقطع عليّ صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كُلُّكُمْ، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ فرددته خاسئاً»[1].

وفي رواية[2]: «ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة».

وقوله تعالى مخبراً عن سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ أي: لا ينبغي أن يظهر ويَعمل بمقتضاه أحد بعدي، وهذا ما فعله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذا كان سليمان عليه السلام يأمر بإغلال الشياطين وربطهم، فإن لسيدنا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تعاويذ تغلّهم وتقيّدهم؛ بل قد تحرقهم، ومن ذلك لمّا أسري برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرأى عفريتاً من الجنّ يطلبه بشعلة من نار، كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رآه.

فقال له جبريل: أفلا أعلمك كلمات تقولهن؟ إذا قلتهن طُفئت شعلته وخرّ لفيه ـ أي: لوجهه ـ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بلى».

---

(١) المسند (٢/٢٩٨)، وصحيح البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب /٤٠/ (٣٤٢٣)، وصحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب /٨/ (٥٤١).

(٢) في المسند (٣/٨٢) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فقال جبريل: فقل: «أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامّات اللاتي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر؛ من شر ما ينزل من السماء وشرّ ما يعرج فيها، وشرّ ما ذرأ في الأرض وشرّ ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار؛ إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمٰن»[1].

وفي رواية[2]: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فكبّ العفريت لوجهه وانطفأت شعلته».

وإذا كان سليمان عليه السلام قد سخّر الله له الريح تجري بأمره، حيث كان يجلس مع وزرائه على الكراسي، ثم يأمر الريح فتعلو بهم في أجواء السماء بسرعة دونما اضطراب وإزعاج ﴿رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ الآية.

وقال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ فمن حيث السرعة هي عاصفة، ومن حيث المحمول عليها هي رخاء ولا اضطراب، وقد جاء في القرآن الكريم تحديد سرعتها ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ أي: تطوي بمن حملته مسافة شهر في زمن يسير كالغداة، وكذلك الرواح وهو آخر النهار، فتقطع مسافة شهرين في يوم واحد. والغدو هو: ما كان قبل الزوال، والرواح ما كان بعده.

فإذا كان ذلك لسليمان عليه السلام، فقد أُعْطِيَ سيدنا رسول الله

---

(١) كما في موطأ الإمام مالك، كتاب الجامع، باب ما يؤمر به من التعوذ (١٧٢٩).

(٢) في سنن النسائي الكبرى (٦/٢٣٧) حديث رقم /١٠٧٩٢/.

صلى الله عليه وآله وسلم ما هو أعظم من ذلك، فقد أسري به صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة واحدة على البراق من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، ثم عرج به إلى السماوات، إلى سدرة المنتهى، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، إلى عالم العرش.

وقد قال المحققون: ذاك يوم مقداره خمسون ألف سنة.. بدليل قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] كل هذا طواه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جزء من الليل.

وإذا كان سليمان عليه السلام يركب الريح للاستطلاع والاستكشاف وما هنالك، فإن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كشف الله له عن عالم الدنيا كله.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها»[١].

وفي رواية[٢]: «إن الله قد رفع لي الدنيا فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة؛ كأنما أنظر إلى كفي هذه» ولم يحتج لركوب الريح للاستطلاع والكشف، فرأى صلى الله عليه وآله وسلم الدنيا وَمَنْ فيها، ومن كان ومن سيكون إلى يوم الدين.

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٢٧٨) ـ وله طريق عن سيدنا شداد رضي الله عنه (٤/١٢٣) ـ ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب /٥/ (٢٨٨٩)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٧)، وابن ماجه (٣٩٥٢).

(٢) عزاه في مجمع الزوائد (٨/٢٨٧) للطبراني عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما.

كما أعطي سيدنا سليمان عليه السلام جنوداً من الإنس والجنّ والطير، وأعطي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أعظم من ذلك، وهو ما ذكره سبحانه في أول سورة الفتح: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الفتح: ٣-٤].

وقال بعدها بآيتين: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ الآية [الفتح: ٧-٨].

والمعنى: إن الله تعالى ينصرك بجنود السماوات والأرض، فالسماوات والأرض وما بينهما جنود لله يُجندها لنصرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا من وجوه النصر العزيز، قال تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾.

وَمِنْ مظاهر ذلك ما كان يوم بدر، فقد جنّد الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الملائكة يوم بدر وأمدّه ﴿بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وجنّد سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم الملائكة والرياح يوم الأحزاب، قال سبحانه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [الأحزاب: ٩].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «نصرت بالصبا»[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١/٣٢٤) والبخاري في آخر كتاب الاستسقاء (١٠٣٥) ومسلم في آخر كتاب صلاة الاستسقاء (٩٠٠).

كما جنّد الله تعالى التراب لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، يوم رمى بكفّ من تراب وجوه المشركين في غزوة بدر ويوم حنين، ويوم رمى به أولئك الذين أرادوا اغتياله يوم هجرته صلى الله عليه وآله وسلم، فأعماهم الله وأصمّهم وقتلهم يوم بدر.

وجنّد سبحانه له الطير، فهذه الحمام تعشعش على باب الغار لَمّا دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه يوم الهجرة، بل إن تلك العنكبوت التي نسجت خيوطها على باب الغار هي جند من جنود الله تعالى(١).

وإنّ جبريل وميكائيل هما من قوّاد جنود الملائكة، إذ نزلا يوم بدر عن يمين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن شماله، وشاركته الملائكةُ المقربون في قتال المشركين، وقد نزلت الملائكة في عدد من الغزوات تُباشر القتال أحياناً، وتنزل بالسكينة على قلوب المؤمنين وتثبتهم وهكذا... وتلقي الرعب في قلوب الأعداء.

وروى الإمام أحمد في (مسنده) بإسناد صحيح(٢)، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أوتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق عليه قطيفة من سندس».

فقد جاء جبريل عليه السلام بمفاتيح خزائن الدنيا كلّها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ممّا يدلك على أنه صلى الله عليه وآله وسلم أعطي الملك العام، ولكنه لم يعمل بمقتضى الملك بل

---

(١) تنظر كتب السيرة.

(٢) (٣/٣٢٨).

بمقتضى العبودية لله تعالى، فحين دخل مكة فاتحاً والجيوش مِنْ حوله، والناس يتطلعون إليه حنى رأسه وظهره تواضعاً لله تعالى.

وقد علّم الله تعالى سليمان عليه السلام منطق الطير، قال سبحانه مخبراً عنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ الآية، فكان يفهم لغة الطيور، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد أُعطي ذلك وفوق ذلك:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطاناً»[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرة ـ وهي طائر صغير كالعصفور ـ معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمّرة فجعلت تعرّش[2]، فجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «مَنْ فجع هذه بولدها، رُدُّوا ولدها إليها»[3].

---

(١) الحديث في المسند (٢/٣٠٦) وصحيح البخاري كتاب بدء الخلق، باب /١٥/ (٣٣٠٣) وصحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب /٢٠/ (٢٧٢٩).

(٢) التعريش: أن ترتفع وتظلّل بجناحيها على من تحتها.

(٣) كما في سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب كراهة حرق العدو بالنار (٢٦٧٥) وينظر في دلائل النبوة للبيهقي (٦/٣٢).

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلفه ذات يوم، فدخل حائطاً ـ أي: بستاناً ـ لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم حنّ ـ الجمل ـ وذرفت عيناه. فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمسح ذفريه ـ موضع الأذنين من مؤخر الرأس ـ فسكن ـ الجمل ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ ربّ ـ أي: صاحب ـ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل»؟.

فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك الله إياها؟ فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه»[١] أي: تتعبه من كثرة العمل عليه واستعماله فوق طاقته.

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم أعطي منطق الحصى والأحجار، فسلّمت عليه بصفة الرسالة:

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله)[٢] صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) ينظر مسند الإمام أحمد (١/٢٠٥) وسنن أبي داود كتاب الجهاد (٢٥٤٩) وصدره في صحيح مسلم في كتاب الحيض (٣٤٢).

(٢) سنن الترمذي كتاب المناقب (٣٦٣٠) وسنن الدارمي في المقدمة ص(١٢).

وروى الترمذي[1]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: بمَ أعرف أنك نبيٌّ؟ قال: «إن دعوتُ هذا العِذقَ ـ غصن النخلة ـ من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله»؟ فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ثُم قال: «ارجع» فعاد ـ العذق ـ إلى موضعه والْتَأَمَ ـ أي: اتصل بالشجرة كما كان ـ فأسلم الأعرابي).

وقد صاح الجذع[2] لفراق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهو الجذع الذي كان يستند عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبه في مسجده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم. لأنّ العلم والمعرفة بأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أمرٌ سارٍ في جميع الأشياء والمخلوقات، إلاّ من طُمِسَ على قلبه فجحد وأنكر، وتعامى فأعمى الله قلبه، وأعرض فأعرض الله تعالى عنه.

ولقد أعطى الله تعالى عيسى ابن مريم عليه السلام آيات ومعجزات منها:

أنه كان يُبرئ الأكمه والأبرص ـ والأكمه: من وُلِدَ أعمى،

(١) في كتاب المناقب (٣٦٣٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٦/١٥).

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد (٣/٣٠٦) وصحيح البخاري في كتاب الجمعة (٩١٨) وينظر أيضاً في (٣٥٨٣ و٣٥٨٤ و٣٥٨٥) وهو من الأحاديث المتواترة، فقد رُوِيَ من طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم.

والأبرص: من أصيب بِدَاءِ البرص ـ فكان سيدنا عيسى عليه السلام يبرئ المصابين ولو بداءات مزمنة أعيت الأطباء وأعجزتهم، فكان عليه السلام يمسحه ويدعو الله تعالى له فيُبرِئ المصابَ بإذن الله تعالى.

وقد أعطي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك على وجه أعظم وأكبر، فقد أبرأ بعض العميان حين ألحّوا في الطلب.

ففي الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي، والحاكم وصحّحَ إسناده، ورواه أحمد ـ واللفظ له ـ بعدة روايات، ورواه الطبراني، وابن خزيمة، وابن ماجه وصحّحه، عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ادع الله لي أن يعافيني. فقال: «إن شئت أخرّت لك وهو خير، وإن شئت دعوت» فقال: ادعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى، اللهم شفعه فيّ»[(١)].

وفي رواية[(٢)]: فدعا بهذا الدعاء فقام وقد أبصر.

ومعنى: «أتوجه إليك» أي: أجعل وجهي إليك يا ألله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله: «نبيك صلى الله عليه وآله وسلم» أي: بذاته الشريفة، ومقامه النبوي عندك يا ألله.

---

(١) تقدم تخريجه ص /٤١/.

(٢) عند الحاكم في المستدرك (١/٥٢٦).

وبهذا الحديث وأمثاله استدلّ العلماء على جواز التوسّل بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأن التوسّل به صلى الله عليه وآله وسلم هو من أعظم أسباب إجابة الدعاء.

وفي الحديث[1] : أن قتادة بن النعمان رضي الله عنه رُمِيَتْ عينه يوم أحد، فسالت حدقته على وجنته، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن عندي امرأة أحبها، وإنْ هي رأت عيني خَشيْتُ أن تقذرني ـ أي: تكرهني ـ.

فردّها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاستوت ورجعت، وكانت أقوى عينيه وأصحّهما، وفي رواية[2]: وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى. وفي رواية[3]: أن كلتا العينين أصيبتا فأعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكم مِنْ مريض ومبتلى شفاه الله تعالى وعافاه بدعواته ومسحاته صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد تَفَلَ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عيني علي بن أبي طالب رضي الله عنه لمّا أصابه الرمد يوم خيبر؛ فبرئ كأنه لم يكن به وجع[4].

---

(١) كما في الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٤٥٣) وسيرة ابن هشام (٣/٨٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٣/٢٥٢).

(٢) كما في الروض الأنف (٣/١٧٦).

(٣) انظر الروض الأُنف (٣/١٧٦) والسيرة الشامية (١٠/٢٢٨).

(٤) الحديث في صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب /١٤٣/ (٣٠٠٩) ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل سيدنا علي رضي الله عنه (٢٤٠٦) وينظر ما قاله الإمام النووي فيه.

ولما كُسِرَتْ رجل سلمة بن الأكوع رضي الله عنه نفث فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث نفثات فبرئ من ساعته[1].

وقال السائب بن يزيد رضي الله عنه: ذهبت بي خالتي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله إن ابن أختي وَجِعٌ ـ وفي رواية: وقع ـ أي: لا يقدر على المشي كالكسيح ـ فمسح رأسي ودعا لي بالبركة[2]؛ فبرئ رضي الله عنه من ساعته.

ونسأل الله تعالى أن يرزقنا من مسحاته صلى الله عليه وآله وسلم وفيوضاته ما نسعد به في الدنيا والآخرة. آمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

---

(١) كما في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٤٢٠٦).

(٢) كما في صحيح البخاري كتاب الوضوء (١٩٠) وصحيح مسلم كتاب الفضائل، باب اثبات خاتم النبوة (٢٣٤٥).

❖ المحاضرة الرابعة:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أمّا بعد:

فإن أبرهة لمّا تغلّب على الحبشة، ورأى الناس تُقْبِلُ على البيت الحرام بالحج إليه، أراد أن يصرف الناس إلى حج بيت آخر يبنيه في صنعاء اليمن، فبنى بيتاً مزخرفاً مُرصّعاً بالياقوت والمعادن النفيسة؛ حتى يقال: إنه جاء بأحجار مِنْ عرش بلقيس. فلما أتمّ بناءه، بَلَغَ العرب في الجزيرة العربية أنَّ أبرهة يحاول أن يصرف الناس عن بيت الله تعالى إلى بيته.

فراح رجل من بعض قبائل العرب، ودخل ليلاً إلى هذا البيت الذي بناه أبرهة، وتغوّط فيه ـ ونِعم ما فعل ـ ثم فَرّ هارباً، فلمّا بلغ أبرهةُ ذلك غضب، وعزم أن يذهب بجيش ليهدم الكعبة، وأعدّ عدّته مجهزة بالفيلة الضخمة.

وتعرض له بعض قبائل العرب بالمنع والمحاربة فَلَم يقدروا على ردّه، حتى وصل المغمّس ـ وهو موضع قريب من مكة على

ثلثي فرسخ ـ فأرسل رجلاً من قِبَله لِيُخْبِرَ أهل مكة أنه ما جاء محارباً؛ بل جاء لهدم الكعبة فقط.

وكان كلما مرّ في طريقه على دوابّ وأنعام لأهل مكة اغتصبها، حتى إنه اغتصب لعبد المطلب مائتي جمل.

ثم طلب اللقاء مع أشرف أهل مكة، فقيل له:أشرفهم عبد المطلب. فأرسل إليه، فلما دخل عليه ـ وكان عبد المطّلب رجلاً مهيباً ذا فطنة وحصافة ـ نزل أبرهة عن كرسيّه وجلس إلى جانب عبد المطّلب وقال له: ماذا تريد؟

فقال عبد المطلب: إنّك قد أخذت لي مائتي جمل وأريد ردّها.

فقال أبرهة: لَمّا دخلت عليّ عَظُمت في عيني، والآن صغرت.

فقال عبد المطلب: لِمَ؟

قال: سألت عن إبلك وما سألتَ عن هذا البيت الذي قصدتُ هدمه.

فقال عبد المطلب: أما الإبل فأنا ربّها ـ أي: أنا صاحبها ـ وإن للبيت رباً يحميه.

فقال أبرهة: ما كان ليمتنع منّي.

فقال عبد المطلب: أنت وذاك ـ أي: أنت ورب البيت فلينظر الغالب ـ فردّ أبرهة عليه إبله.

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب، ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة؛ ومعه نفر من

قريش يدعون الله تعالى، ويستنصرونه على أبرهة وجنده فقال: لاهُمَّ ـ أي: اللهم ـ إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك.

ثم أرسل حلقة الباب، وانطلق هو ومَنْ معه مِنْ قريش إلى الجبال ينظرون ما أبرهة فاعل بمكة.

فأصبح أبرهة متهيئاً لدخول مكة، وهيّأ فيله محموداً، وعبّأ جيشه، وأجمع على هدم البيت بأن يَجعل السلاسل في أركان البيت، وتوضع في عنق الفيل، ثم يزجر ليلقي الحائط جملة واحدة.

فلمّا وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نُفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال له: ابرك محموداً أَوِ ارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه. فبرك الفيل فضربوه في رأسه ضرباً شديداً ليقوم فأبى، فوجّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يُهرول، ووجّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك.

وكما قال صلى الله عليه وآله وسلم عن راحلته: «حبسها حابس الفيل»[(١)].

ثم أرسل الله تعالى عليهم طيراً أبابيل ـ أي: جماعات ـ أمام كل جماعة طائر يقودها، أحمر المنقار، أسود الرأس، طويل العنق، مَعَ كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجر في منقره وحجران في رجليه كأمثال العدس، لا تصيب أحداً منهم إلا أهلكته. وكان الحجر يقع على رأس

---

(١) طرف من حديث طويل رواه الإمام البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٢٧٣١).

الرجل فيخرج من دبره، فخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق، وَيَهْلكون على كل منهل، يبتدرون الطريق الذي جاؤوا منه، يسألون عن نُفَيْلٍ ليدلّهم على الطريق إلى اليمن؛ وكان أبرهة قد أخذه أسيراً فهمّ بقتله فقال: لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب، فتركه فقال لهم نفيل:

أيـن المفـرّ والإلّـه الطالـب　　　والأشرم المغلوب ليس الغالب

وَسُمِّيَ أبرهة بالأشرم لأنه كان أشرم الأنف.

وأصيب أبرهة في جسده بداءٍ ـ هو الجدري ـ وتساقطت أنامله أنملة أنملة ـ أي: انتثر جسمه، والأنملة: طرف الأصبع لكن قد يعبَّر بها عن طرف غيره ـ وسال منه الصديد والقيح والدم، ولم يمت حتى انصدع قلبه.

وانفلت وزيره أبو يَكْسُوْم وطائره يُحلِّق فوق رأسه وهو لا يشعر به، حتى بلغ الملك فأخبره بما أصابهم، فلما أتمّ كلامه رماه الطائر فوقع عليه الحجر فخرّ ميتاً، فرأى الملك كيف كان هلاك أصحابه[1].

وهذا قوله تعالى مُمْتنّاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مذكّراً له بفضله عليه: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ أي: ألم تعلم يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عِلماً يقيناً كأنها رؤيا عين ﴿كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ الذي هو ربك وسيدك ومولاك، والذي ربّاك وعناك فيما مضى، وله بك عناية خاصة، ومن عناية الله بك يا محمد أنه هو حفظ لك هذا البيت الذي يكون لك معبداً، ويكون لقبلتك

---

(١) ينظر البحث في كتب السيرة والتفسير.

مصلّى، وسيكون لشرعك محجّاً، فهو حُفِظَ تشريفاً وتكريماً لك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فلقد حفظ الله تعالى هذا البيت غَيْرةً على مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي سيلد في هذا العام؛ وهو عام الفيل، وليس غَيرة على قريش أو على أحجار البيت.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: أنه سبحانه أبطل ما دبّروه وردّه عليهم.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ وأبابيل: جمع أُبُّوْلَه. أي: جماعات بعد جماعات.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: من طين مطبوخ.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي: كزرع أُعدّ لأن تأكله الحيوانات كالتبن.

وما هذا إلا مقدمة وتمهيدٌ لبعثة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

* * * * *

من آيات مولده صلى الله عليه وآله وسلم

ولد صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الاثنين عند الفجر على ما ذهب إليه كثير من العلماء، وهذا الوقت هو وقت التجلي الإلّهي.

ففي تلك الليلة انصدع إيوان كسرى، وخمدت نار فارس، وسقط من إيوان كسرى أَربع عشرة من شُرفاته، وغاضت بُحَيرة ساوة، وهذا دليل خذلان الكفر والضلال، لأنه ظهرت أنوار النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن العجائب التي ظهرت عند ولادته صلى الله عليه وآله وسلم إرهاصاً لنبوته ما أخرجه البيهقي[1] وأبو نعيم، عن حسان بن ثابت رضي الله عنه ـ شاعر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: (إنّي لغلام ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل ما رأيت وسمعت، إذا يهودي يصرخ ذات غداة: يا معشر قُريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟.

قالوا: لا نعلم.

قال: انظروا، فإنه ولد في هذه الليلة نبيّ هذه الأمة) الحديث.

ومن عجائب مولده صلى الله عليه وآله وسلم: انتشار النور وامتداده عند ولادته صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) في دلائل النبوة (١/ ١١٠) وينظر في سيرة ابن هشام، والمستدرك للإمام الحاكم (٣/٤٨٦).

روى الإمام أحمد[1]، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنِّي عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته ـ أي: قبل نفخ الروح فيه ـ وسأخبركم عن ذلك: إني دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمّي التي رأت، وكذلك أمّهات النبيّين يَرَيْنَ».

(وإن أمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام) وليست هذه الرؤية منامية بل رؤية عيان يقظة.

وقالت أم عثمان بن أبي العاص: (لما حضرت ولادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأيت البيت حين وقع ـ أي: نزل صلى الله عليه وآله وسلم من بطن أمه ـ قد امتلأ نوراً، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع عليّ، فلما وضعَتْه آمنةُ خرج منها نور أضاء له البيت والدار حتى جعلت لا أرى إلا نوراً)[2].

ودنوّ النجوم يعني دنوّ الملائكة، إذ إنها جاءت بأمثال المصابيح لتحفّ ذلك البيت العليّ.

وهذا كما رأى أُسيد بن حضير رضي الله عنه ظُلّة فيها أمثال المصابيح حين كان يقرأ في بعض الليالي سورة البقرة، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: «وتدري ما ذاك»؟ قال: لا.

---

(١) في المسند (٤/١٢٣) ولفظه عنده: «إني عبد الله» وينظر في مجمع الزوائد (٨/٢٢٣) فقد عزاه للبزار والطبراني أيضاً، وهو عند الحاكم (٢/٦٠٠).

(٢) كما في دلائل النبوة (١/١١١) وعزاه في مجمع الزوائد (٨/٢٢٠) للطبراني.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم»[1].

فتمثلت الملائكة بصور المصابيح، وهي الأنوار الكثيرة المجتمعة على بعضها كالظلّة، وهذا ما رأته أم عثمان رضي الله عنها.

ويُحتمل أن النجوم بذاتها دنت وقربت ـ أي: كواكب السعود ـ لأن كل نجم وكوكب في السماء له آثار وخصائص تظهر في عالم الأرض بإذن الله وأمره، قال تعالى: ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فللأرض منها منافع، وبينها وبين النجوم ارتباطات معنوية، يقوم بتدبير ذلك ملائكة ينفذون أوامر الله تعالى.

فلقد دنت تلك الكواكب من البيت الذي ولد فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولمّا استأذن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أن يمدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «قل لا يَفْضُضِ الله فاك» وهذا دعاء للعباس بصيانة فمه عن كل خلل وفساد، حساً ومعنى.

فقال العباس رضي الله عنه أبياتاً منها:

من قبلها طِبْتَ في الظلال وفي ... مستودع حيث يُخصف الورق

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (٥٠١٨) وهذا لفظه. ورواه الإمام مسلم في صلاة المسافرين، باب /٣٦/ (٧٩٦).

أضاء منك الوجود نور سناً   وفاح مسكاً ونورك العبق

وأنت لما ولدت أشرقت الأ   رض، وضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفي النـ   ـور وسبل الرشاد نخترق[1]

وهذا كما قال البوصيري رضي الله عنه[2]:

ومحيّا كالشمس منك مضيءٌ   أسفرت عنه ليلة غرّاء

ليلة المولد الذي كان للنّاس   سرور بيومه وازدهاء

وتوالت بشرى الهواتف أن   قد ولد المصطفى وحقّ الهناء

* * * * *

(١) كما في دلائل النبوة للبيهقي (٥/٢٦٨) والسيرة لابن كثير، وشرح المواهب عند غزوة تبوك.

(٢) في قصيدته الهمزية المسماة بـ أم القرى في مدح سيد الورى صلى الله عليه وآله وسلم.

نشأته صلى الله عليه وآله وسلم في صغره

*** شق صدره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم .**

*** خاتم النبوة وأسراره.**

لقد جعل الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم يتيماً، إذ توفّي والده الكريم عبد الله وأمه حاملة به شهرين، ثم قامت أمه السيدة آمنة بشأنه، ثم اختار الله تعالى لَهُ مرضعة تقوم برعايته، وهي السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها من بني سعد بن بكر، إذ كان مِنْ عادة العرب أَنهم يتخذون المرضعات، فتأتي المرضعة فتأخذ الولد وتذهب به إلى البَرِّ، وترضعه وتقوم بشأنه حتى يقوى ويكتسب الصحة والنشاط.

ولما جاءت المرضعات كلٌّ تطلب رضيعاً ترضعه، وبقيت السيدة حليمة لم تنل من الصبيان رضيعاً، إذ أبت المرضعات أن يرضعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما سمعوا أنه يتيم الأب، لأن المرضعات لهن رجاء عند أَب الرضيع بأن يكرمهنّ بعطاء أو مال ونحوه، وعندما يكون الرضيع يتيم الأب ينقطع رجاء المرضعة.

وهكذا أخذت السيدة حليمة رضي الله عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان من حظّها، فبارك الله تعالى لها في

عيشها بعد أن كانت في قحط وشدة، وكثر حليبها، وحلّت البركات في دارها ودار بني سعد كلهم ـ قومها ـ[1].

ولقد أرضعته حولين على ما هو عليه الأكثر، وكان عليه الصلاة والسلام يَشبّ شباباً لا يُشبِهُ الغلمان. وهذه عناية خاصة به صلى الله عليه وآله وسلم، ومدد خاص من الله تعالى له.

وعندما انقضت مدة الرضاع وفي السنة الثالثة، جاءه الملك ليشق صدره صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في صحيح مسلم[2]، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ـ وهذا إنما تلقّاه أنس رضي الله عنه لا عن رؤية وإنما حَدَّث بذلك عمّن عاين ـ فأخذه فصرعه، فشقَّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم ـ وَهو ذَهَبٌ من عالم آخر يحلّ الانتفاع به ـ ثم لأَمَهُ، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يَسعون إلى أمه ـ يعني: ظئره. أي: مرضعته ـ فقالوا: إنّ محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللّون ـ أي: متغير اللون ـ وهذا الشق وقع أول مرة للنبي عليه الصلاة والسلام وهو بواسطة جبريل وميكائيل عليهما السلام.

قال أنس رضي الله عنه: (وقد كنت أرى أثر ذلك المَخِيْطِ في صدره صلى الله عليه وآله وسلم).

---

(١) كما في كتب السيرة.

(٢) كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماوات (١٦٢) وينظر دلائل النبوة للبيهقي (٢/٥).

وهناك عدة وقائع شُقّ فيها صدره الشريف عليه الصلاة والسلام فقد جاء في كثير من الأحاديث أن ملكين جاءا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو مع الغلمان، فأضجعه أحدهما فشقّ عن صدره الشريف فاستخرج قلبه فغسله أولاً بماء الثلج، ثم غسله بالبَرَد ـ أي: بماء البرد ـ ثم ملأاه سكينة[1].

ومن حكمة أسرار ذلك ما جاء في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول بعد أن يكبّر للصلاة: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقّني من خطاياي كما ينقّى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبَرَد»[2].

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد» أي: اغسل قلبي من خطاياي بالماء. وإن الغسل بالماء مُطَهّر، فإذا غُسِلَ القلب بالماء طهر، وانقلبت السيئات حسنات قال تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: ٧٠].

أما الغسل بالثلج فقد جاء على لسان العرب: ثَلج فؤاده، بمعنى: أنه سُرّ، ورضي، وفرح، واطمأنّ قلبه.

فمن طهر قَلْبُهُ وبُدِّلَتْ سيئاته حسنات: سرّ وفرح لذلك.

---

(١) ينظر المسند (٤/١٨٤) والمستدرك (٢/٦١٦).

(٢) كما في صحيح البخاري كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير (٧٤٤) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب /٢٧/ (٥٩٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما الغسل بالبَرَد فإن البَرَد من البَرْد أي: القطع، ومنه المِبْرَد. فالبرد يُبرد أي: يقطع، ويبرّد من البرودة.

فالبرد يأتي على الزرع وَيُبردها أي: يقطعها كالمبرد.

والبرد بَرْد لأنه يُعطي برودة، فإذا غُسل القلب بالبَرد الروحاني: تنكسر قسوة القلب؛ فيخشع لله تعالى.

وببرودة هذا البرد تضعف القوة الحرارية الشهوانية، مما يساعد القلب على الحضور مع الله تعالى. وهذا الحال ينبغي للعبد أن يطلبه لأنه داخل في الصلاة.

فلما ورد أَنّ الملك غسل قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم بالثلج والبرد، ولم يقل بالماء لأنه صلى الله عليه وآله وسلم مَعصوم عن الخطايا، ومعصوم عن تدنّس القلب بالذنوب؛ لمّا شقّ قلبه الشريف أول مرة، واستخرج حظ الشيطان منه.

وقد غسل بالثلج حتى يَثلج قلبه وفؤاده، ويسرّ ويرضى عليه الصلاة والسلام. وغسل بالبرد مما يزيد قلبه خشوعاً وإنابة لله تعالى.

وجاء في الحديث[1] أنه ﷺ قال: «فقال أحد الملائكة لصاحبه: زنه بعشرة فوزنني بعشرة فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة، فوزنني بمائة فرجحتهم، ثم قال: زنه بألف، فوزنني فرجحتهم، فقال: أحدهما للآخر: لو وزنته بأمته لرجحها» أي: وما ساووه صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا الوزن هو للمعاني الإيمانية، والاستعدادات والقابليات

---

(١) رواه البزار كما في مجمع الزوائد (٣٥٥/٨) وينظر في السيرة الشامية (٨٦/٢).

التي خصّه الله تعالى بها، وبعد ذلك خَتَمه بخاتم النبوة، وهذا هو المعتمد أن الختم بخاتم النبوة كان عقب الشقّ.

* صفة خاتم النبوة الجسماني:

خاتم النبوة هو بين كتفيه عليه الصلاة والسلام، وهو شيء عند نغض كتفه الأيسر ـ أي: آخر كتفه الأيسر ـ، ناتئ مرتفع، على هيئة الثآليل، وعليه خِيْلان ـ أي: شعر منه عليه الصلاة والسلام ـ، وهو على قدر بيضة الحمامة مِن حيث الشكل والمساحة، أما من حيث اللون ففيه الحمرة.

وهذا الموضع من جسمه الشريف عليه الصلاة والسلام فيه المهابة النبوية، فما تراه عين إلا وينكسر قلب صاحبها له.

والمعتمد في الروايات أنه عند ناغض كتفه الأيسر صلى الله عليه وآله وسلم[1]، أمّا الرواية بأن خاتم النبوة يَميل إلى الكتف الأيمن فهي شاذة مردودة[2].

ولقد كان هذا الختم من علائم نبوته صلى الله عليه وآله وسلم وصدقها.

وقد وصفه الله تعالى بهذه العلامة في جميع الكتب السماوية السابقة، من هذه الروايات ما ورد في صحيح مسلم[3]، عن عبد الله

---

(١) مبحث خاتم النبوة في دلائل النبوة للبيهقي (١/٢٥٩) والسيرة الشامية (٢/٦٣)، وشرح المواهب للإمام الزرقاني (١/٢٨٩) وما بعدها.

(٢) كما في شرح المواهب (١/٢٩١).

(٣) في كتاب الفضائل، باب اثبات خاتم النبوة (٢٣٤٦) وهو في المسند (٥/٨٢ و ٨٣).

ابن سرجس رضي الله عنه قال: رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأكلت معه خبزاً ولحماً، فقلت: يا رسول الله غفر الله لك ـ وهذا إخبار وليس بدعاء، فهو يخبر عمَّا خصّ الله تعالى به نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله سبحانه: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فهو في ذلك يطلب ما وراء ذلك ـ.

والمراد: باعتبار أنك يا رسول الله مغفور لك، وأننا لم تُضمن لنا المغفرة، فإني أسألك أن تستغفر لنا، كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [القتال: ١٩].

فقال عليه الصلاة والسلام: «ولك» ـ أي: غفر الله لك أيضاً. وهو دعاء من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا شك أنه لا يردُّ ـ فصار الصحابة يهنئون عبد الله بن سرجس ويقولون له: استغفر لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: واستغفر لكم أيضاً، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾.

قال عبد الله: ثم دُرْتُ خلفه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، عند ناغض كتفه اليسرى، جُمْعَاً، عليه خِيْلان كأمثال الثآليل. أي: على هيئة الأصابع المجتمعة.

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كان خاتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعني الذي بين كتفيه: غُدَّة حمراء مثل بيضة الحمامة»[1].

وإنما كان وضع هذا الخاتم عقب شق صدره الشريف

---

(١) كما في سنن الترمذي كتاب المناقب (٣٦٤٧).

واستخراج قلبه، ثم ختم بهذا الخاتم، لأنّ الشيء كالإناء مثلاً إذا امتلأ بالأشياء النفيسة فشأنه أن يختم عليها، فلما شُقّ قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم وَغُسل، ثم ملئ سكينة وحكمة وإيماناً؛ ختم بهذا الخاتم، وفي هذا إشارة لقداسة وشرف وعظمة الشيء الذي امتلأ به قلبه صلى الله عليه وآله وسلم، فختم عليه ختماً.

ولقد كان هذا الختم عند الكتف الأيسر؛ لأن للقلب باباً إلى جهة الكتف الأيسر، فخاتم النبوة هو على استقامة قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام تماماً، وهذا الباب للقلب هو الباب الذي يتسرّب منه الشيطان إلى من تسلّط عليه، ويأتي من هذا الموضع.

ولقد روى ابن عبد البرّ بسند قويّ، عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ـ وهو من التابعين، فالحديث وإن كان مقطوعاً لكن له شواهد كثيرة من الأحاديث المتصلة ـ أن رجلاً سأل ربه أن يُريه موضع الشيطان من ابن آدمٰ، فأري جسداً ممهّى ـ أي: مصفّى، لأن المها يطلق في بعض إطلاقات اللغة على الزجاج الصافي أي: البلور ـ يُرَى داخله من خارجه، وأريَ الشيطان في صورة ضفدع عند كتفه حِذَاءَ قلبه، له خرطوم كخرطوم البعوضة، وقد أدخله في منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه، فإذا ذكر الله تعالى العبدُ خنس[(١)].

فعرف مِنْ هذا أن هذا الضفدع هو الشيطان، وخرطومه خفيّ ناعم كخرطوم البعوضة، ويتسلّل إلى القلب، وليس هذا الخرطوم حِسيّاً، وإنما هو روحاني.

---

(١) كما في شرح المواهب (١/ ٢٩٠) وينظر الفتح (٦/ ٥٦٣).

لذلك فقد ختم الله تعالى قلب النبي عليه الصلاة والسلام بخاتم النبوة بعد أن ملأه حكمة وإيماناً وسكينة، ولا سبيل لتسلّط الشيطان عليه.

وبهذا السرّ تجلّى الله على نبيّه عليه الصلاة والسلام حينما قام في بعض الليالي يصلّي، فجاءه التجلّي والفيض والفتح ما بين الكتفين. والحديث رواه الترمذي[1]، وسأل عنه البخاري فقال له: صحيح؛ وإن لم يذكره في صحيحه.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: احتبس عنّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى عين الشمس، فخرج سريعاً فَثُوِّب بالصلاة، فصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتجوّز في صلاته، فَلمّا سلّم دعا بصوته فقال لنا: «على مصافّكم، كما أنتم»، ثم انفتل إلينا فقال: «أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة: إني قمت من الليل، فتوضأت فصلّيت ما قدّر لي، فَنَعَسْتُ في صلاتي، فاستثقلت، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال: يا محمد. قلت: رب لبّيك، قال: فِيمَ يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري ربِّ» قالها ثلاثاً، قال: «فرأيته وضع كفّه بين كتفيّ، حتى وجدت برد أنامله بين ثدييّ، فتجلّى لي كل شيء وعرفت» الحديث [انظر طرقه في كتاب صعود الأقوال للشيخ الإمام رضي الله عنه].

فالتجلّي هنا كان بين الكتفين في خاتم النبوة، ولا تتوهّم

---

(١) في كتاب التفسير (٣٢٣٣).

الجوارح والجسمانيات في حقّ الله تعالى، فهو سبحانه منزّه عن الجوارح ولا يُشبه المخلوق.

ومثال هذا قولهم: فلان له يَدٌ عندنا ـ أي: نعمة وإحسان ـ

وكما قال عليه الصلاة والسلام: «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافيناه، ما خلا أبا بكر فإنّ له عندنا يداً يكافيه الله بها يوم القيامة»[١].

ومن هذا أيضاً أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يجعل العزبة من العمامة بين كتفيه[٢]، حتى يتصل الفيض من القلب إلى الدماغ والعقل.

ولقد وصف الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب السابقة أن بين كتفيه خاتم النبوة، وأنه من خصائصه عليه الصلاة والسلام، وبهذه العلامة والخصوصية كان كثير من أهل الكتاب يعرفونه صلى الله عليه وآله وسلم بها، وتكون سبباً في إسلامهم تصديقاً لما في كتبهم.

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده[٣] عن سلمان رضي الله عنه ـ وكان أصله من فارس، وقومه يعبدون النار، ثم اتصل ببعض الرهبان من أهل الكتاب واتّبعه، وعمل بشريعة النصارى حتى قال له الراهب: (قد أظلّك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج

---

(١) شطر من حديث رواه الترمذي في كتاب المناقب، باب /٣١/ (٣٦٦٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في صحيح مسلم كتاب الحج، باب جواز دخول مكة بغير إحرام (١٣٥٩)، وسنن النسائي كتاب الزينة (٨/٢١١).

(٣) (٥/٤٤١) وفي مجمع الزوائد (٩/٣٣٢).

بأرض العرب، مهاجراً إلى أرض بين حرّتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل) ثم مات الراهب قبل أن يبعث النبي عليه الصلاة والسلام.

وانتقل سلمان رضي الله عنه إلى المدينة المنورة بعد أن أسره جماعة من العرب، وباعوه لليهود قهراً، فصار مملوكاً لهم.

فلما بُعث عليه الصلاة والسلام، وهاجر إلى المدينة، سمع به سلمان رضي الله عنه وفي المساء ذهب إليه صلى الله عليه وآله وسلم ومعه شيء قد جمعه، فقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم).

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه: «كلوا» وأمسك يده فلم يأكل.

فقال سلمان في نفسه: هذه واحدة.

ثم انصرف عنه فجمع شيئاً، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها.

قال: فأكل منها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأمر أصحابه فأكلوا معه.

فقال سلمان في نفسه: هاتان اثنتان.

ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في أصحابه، فسلّم عليه ثم استدار ينظر في ظهره الشريف هل يرى الخاتم؟

فألقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رداءه عن ظهره، فنظر سلمان رضي الله عنه إلى الخاتم فعرفه، فانكبّ عليه يقبّله ويبكي. وآمن رضي الله عنه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبره بقصته.

ثم قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كاتِبْ يا سلمان» فكَاتَبَ على ثلاثمائة نخلة حتى تُطْعِمَ، وأربعين أوقية من الذهب.

فدفع عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقام بغرس النخيل عن سلمان رضي الله عنه بيده الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم؛ إلا غرسة واحدة غرسها غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما حال عليها الحول أثمرت كلها إلا هذه الغرسة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ غَرَسَ هذه»؟ قال عمر رضي الله عنه: أنا غرستها يا رسول الله، فنزعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم غرسها فحملت من عامها ـ وهذا من بركات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

وقد شقّ صدره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ثالث مرة عند مجيء جبريل عليه السلام بالوحي إليه حين نُبِّئ، وأما المرة الرابعة فقد شُقّ صدره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء والمعراج.

وكل شقّ له حكمة، وله من الأسرار والمناسبات ما له.

فكان عدد مَرات شق صدره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم أربع مرات على المعتمد. وقيل: خمس مرات، وهذه الرواية لا تثبت[1].

---

(١) انظر شرح المواهب (١/٢٨٩)، وقد تكلم عن ذلك مطولاً مع الأدلة العلامة الشامي في كتابه الممتع سبل الهدى والرشاد (٢/٨٠).

* **الحِكَم في يُتْمِهِ عليه الصلاة والسلام:**

عندما تمّ للسيدة آمنة والدة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ حملها شهران توفي السيد عبد الله والد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وعندما صار عمره الشريف أربع سنين توفيت والدته السيدة آمنة. ولله تعالى حكم في ذلك.

فلقد أيتمه الله تعالى من الأبوين حتى لا يكون لمخلوق عليه حق، فإن للأبوين عليه حقوقاً لابد من القيام بها.

ثم إنه سبحانه تَولّى تربيته حتى لا يتأثر بمربٍّ، أو بتربية إنسان أو مخلوق، إنما ربّاه الذي خلقه وعناه بعنايته الخاصة. ولهذا امتنّ الله تعالى عليه بأنه هو الذي ربّاه وآواه، فقال سبحانه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: آواك الله إليه، فامتنّ عليه سبحانه بنعمه وعنايته به منذ صغره.

ثم كفله جده الكريم عبد المطلب، وكان عبد المطلب يُجلّ ويعظم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى كان يَستسقي لقريش به صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هذا أن قريشاً أتت عبد المطلب ليستسقي لها، وأخرجوا من كل بطن منهم رجلاً، ثم علوا على أبي قُبيس، ومعهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو غلام، فتقدم عبد المطلب ودعا الله تعالى، فما برحوا حتى سالت الأودية، وسقوا ببركة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1].

---

(١) كما في طبقات ابن سعد (١/ ٩٠) ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٥).

ولهذا كان أبو طالب يقول في وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهه ... ثِمَالُ اليتامى عِصمةٌ للأرامل
يلوذ به الهُلاَّك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضل

ومعنى: ثمال اليتامى أي: ملجأ اليتامى.

وفي السنة الثامنة من عمره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم تُوفي جده الكريم عبد المطلب، فكفله عمّه أبو طالب أخو أبيه عبد الله وقام بشأنه.

ولما صار عمره صلى الله عليه وآله وسلم اثنتي عشرة سنة، خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام حتى بلغ بصرى ـ أي: مدينة حوران ـ فعرفه الراهب بَحِيْرا بصفته، فقال وهو آخذ بيده: هذا سيد المرسلين، هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين.

فقيل له: وما علمك بذلك؟.

قال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرّ ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا. وسأل أبا طالب أن يَرُدَّه خوفاً عليه من اليهود[1].

وفي رواية[2] أنه صلى الله عليه وآله وسلم أقبل وعليه غمامة تظلّه.

---

(١) الخبر في سنن الترمذي في أبواب المناقب، باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ (٣٦٢٤).

(٢) ينظر دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٥).

وفي حديث عند البيهقي في الدلائل[1] وأبي نعيم أن بحيرا رأى وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا وغمامة بيضاء تظلّه صلى الله عليه وآله وسلم من بين القوم، ثم أقبلوا حتى نزلوا بظل شجرة قريباً منه ـ أي: من بحيرا ـ فنظر إلى الغمامة حين أظلّت الشجرة، وتهصّرت ـ أي: مالت الشجرة وتدلّت ـ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى استظل تحتها.

وأخرج الترمذي وحسّنه، والحاكم وصحّحه[2]: أنّ في هذه السّفرة أقبل صلى الله عليه وآله وسلم وعليه غمامة تظلّه، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال بحيرا: انظروا إلى فَيْءِ الشجرة مال عليه.

قال: فبينا هو قائم عليهم وهو يناشدهم ـ أي: قوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن عرفوه بالصفة فيقتلونه. فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم ـ يقصدون قتله عليه الصلاة والسلام ـ فاستقبلهم بحيرا فقال: ما جاء بكم؟

فقالوا: إن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بُعِث إليها بأناس.

فقال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا.

فبايعوه وأقاموا معه ـ أي: مع بحيرا الراهب ـ. قال: أنشدكم بالله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب.

---

(١) (٢/٢٧).

(٢) الترمذي (٣٦٢٤) والمستدرك (٢/٦١٥).

* أعماله صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم».

فقال أصحابه: وأنت؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم. كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[(١)].

والحِكَمُ في رعاية الغنم منها خُلُقية، ومنها روحية قلبية، ومنها حكم اجتماعية:

أما الحكمة الخُلقية النفسية : فإنّ في رعاية الغنم توطيناً للنفس على الرأفة والسكينة، والرحمة والعطف والحنان، لأن الغنم تستجلب رأفة الإنسان وعطفه وحنانه.

وقد أشار إلى هذا عليه الصلاة والسلام في الحديث: «والسكينة في أهل الغنم»[(٢)]. وأما الخيلاء ففي أهل الخيل والإبل. لأن رعاية الإبل تُكْسِبُ الإنسان شدة وقسوة. فهو صلى الله عليه وآله وسلم انتقل من رعاية الغنم إلى رعاية البشر.

وأما الحكمة الروحية القلبية فهي: أن في رعاية الغنم بُعْداً عن

---

(١) رواه الإمام البخاري في أول كتاب الإجارة (٢٢٦٢) وهذا لفظه، ومسلم في الأشربة، باب /٢٩/ (٢٠٥٠).

(٢) طرف من حديث رواه الإمام البخاري في كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم (٣٣٠١) ومسلم في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان (٥٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

جاهلية قومه، وفيها خلوة مع الله تعالى، وعُزلة عن قومه وأوثانهم، وفي هذا توجّه بقلبه إلى الله تعالى.

وأما الحكمة الاجتماعية فهي: أنه في رعاية الغنم يظهر في صدقه وأمانته صلى الله عليه وآله وسلم ما لا يظهر في بقية الحِرَفِ، لأن الرعاية تحتاج إلى أمانة وصدق، ولهذا عرَفت قريش وسائر العرب أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو الصادق الأمين.

ثم عمل عليه الصلاة والسلام بالتجارة، فقد تاجر للسيدة خديجة رضي الله عنها لَمّا بلغ عمره الشريف خمساً وعشرين سنة، إذ رأت السيدة خديجة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد اشتهر بصدقه وأمانته، فذهب عليه الصلاة والسلام إلى الشام بتجارة لخديجة رضي الله عنها، على أن يأخذ منها مالاً لقاء أتعابه ـ وهي المضاربة ـ وسافر صلى الله عليه وآله وسلم ومعه مَيْسَرَةُ إلى الشام، ولما وصلا إلى بُصرى عرض لهما راهب اسمه: نَسْطُورا، وعرف أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو خاتم الأنبياء. ومن جملة ذلك عرفه حيث نزل صلى الله عليه وآله وسلم تحت شجرة ما نزل تحتها إلا نبي. وكان ميسرة يَرى في الهاجرة ملكين يظلاّنه صلى الله عليه وآله وسلم من الشمس. ولما رجعا إلى مكة في ساعة الظهيرة وخديجة رضي الله عنها في عُلّية لها رأت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو على بعير، وملكان يظلاّن عليه. وفي رواية: فأرته نساءها، فعجبن لذلك.

ودخل عليها صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرها بما ربحوا فسرّت. وأخبرها ميسرة بما رأى وسمع.

ورأت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الكمال والجمال ما رأت، حتى عرضت نفسها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتزوجها، وكان الواسطة في ذلك عمه أبو طالب[1].

ومن الحكم في عمله صلى الله عليه وآله وسلم بالتجارة الخارجية ظهور أمانته وصدقه على أكمل ما يكون، وحتى يعلن للناس كلهم أنه الصادق الأمين، لأنّ العمل في البلدة ليس كالعمل خارجها، ففي ذلك إظهار لصدقه وأمانته صلى الله عليه وآله وسلم في بلدته وخارج بلدته أيضاً.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

(١) كما في طبقات ابن سعد (١/١٢٩) وما بعدها، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/٦٦).

❖ المحاضرة الخامسة:

❊ الوحي: مراتبه - أنواعه

❊ النبوة - الوحي العام - الوحي الخاص (النبوي)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

إن كلمة: النبي تدل على أمرين من حيث اشتقاقها اللغوي: فهي من النَّبْوة ـ بفتح النون المشددة وسكون الباء ـ والنَبْوة هي: المكان المرتفع.

ومن النبأ. أما النبأ فأصلها: نبيء، على وزن: فعيل. أي: مُخبَر من الحق، ومخبِر عن الحق، لأن ما كان على وزن فعيل يستوي فيه معنى الفاعل والمفعول، فالله تعالى يُنبئه، وهو ينبئ الخلق، كقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾ [آل عمران: ١٥]، وقوله: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣] فهو منبَّأ ومنبِّئ.

ففي هذه الكلمة النبي تظهر المعاني الاشتقاقية بتمامها.

والنبي مُخبِر عن الله تعالى، لذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢].

والنبوة هي الإخبار من الله تعالى كما قال جلّ وعلا على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

فيخبر الله تعالى ذلك النبي عن أمر ماض، أو آتٍ، أو أمرٍ تتعلق به الأحوال الحاضرة، أو يُطْلِعُهُ على خصائص وأسرار غيبية عن بعض الأمور.

فهذا معنى: نبي الله أي: منبِّئٌ ومخبِرٌ عن الله تعالى، ولا يقال للخبر إنه نبأ إلاّ إذا كان له اعتبار وقيمة، فالنبي منبِّأٌ بأخبار عالية مشرّفة وعظيمة، وليست بأخبار جزئية، إنّما هي أخبار مقدّسة عزّ عن إدراكها غيره.

أما الطرق التي يُخبر الله تعالى بها أنبياءه فهي كثيرة، فتارة يأتي الخبر من الله تعالى إلى هذا النبي بواسطة رسول من الملائكة، وتارة يأتي النبأ إلى النبي عن طريق بعض الحيوانات التي أمرها الله تعالى بذلك، وتارة عن طريق بعض الجمادات... وهكذا.

فالإنباءات ـ أي: الإخبارات ـ من الله تعالى تتوجّه على الأنبياء من كل النواحي والجهات، ومن هذا ترى أن النبي عليه الصلاة والسلام لمّا توجّه إلى فتح مكة، إذا سحابة بيضاء نشأت في السماء، فقال صلى الله عليه وآله وسلم لما رآها: «جاءكم الفتح»[(١)].

---

(١) ينظر الخبر في كتب السيرة أول غزوة الفتح الأعظم.

ومن هذا أيضاً ما وقع لسيدنا صالح عليه السلام لمّا قَتَلَ قومُه الناقة وعقروها، وهناك تفلّت ابنها فذهب إلى رؤوس الجبال وراغ ـ أي: صاح ـ ثلاث مرات، فعرف صالح عليه السلام أَنّ قومه الذين عقروا الناقة سينزل بهم العذاب بعد ثلاثة أيام، فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

فهذا إخبار وإنباء من الله تعالى لصالح عليه السلام، عن طريق رُغاء الناقة ثلاث مرات، بأنه سيحل عليهم العذاب بعد ثلاث ليال.

ولقد بدأت النبوة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق تسليم الأحجار والأشجار والنباتات[1].

وأما الوحي فهو: إعلام خفيّ على وجه السرعة. فيقال: (أوحى إليه) أي: أعلمه إعلاماً خفيّاً على وجه السرعة.

وهذا يدل عليه كلام العرب في مادة الواو والحاء والياء التي تدل على الإعلام الخفيّ، والسرعة فيه.

هذا الوحي له معنى عام يشمل: الأنبياء، والنباتات، والأرض، والسماوات، وهناك للوحي معنى خاص للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. ومتى أُطلقت كلمة الوحي فتنصرف إلى المعنى الخاص ـ أي: الوحي النبوي ـ قال الله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

---

(١) ينظر المسند للإمام أحمد (٨٩/٥) وصحيح مسلم أول كتاب الفضائل (٢٢٧٧) وسنن الترمذي (٣٦٢٨) وطبقات ابن سعد (١٥٧/١) عن سيدنا جابر بن سمرة رضي الله عنه.

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ أي: إعلاماً عن طريقة الإلهام، بأن يلقي تلك المعاني والكلمات في قلب هذا العبد، ولكن لا يعرف العبد كيف وصلته، ولا يستطيع أن يحدّد سماعها، فهذا الوحي يقال له: وحي إلهام.

﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ أي: كما كلّم الله تعالى موسى عليه السلام من وراء حجاب.

﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ فهذا هو عن واسطة الرسول الملكي، وهو للأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم.

قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ١٩٤].

وقد يوحي الله تعالى إلى بعض البشر عن طريق بعض البشر فيأمره بما أمره الله تعالى به، قال سبحانه: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ أي: فيوحي الله إلى نبيّ: أن أوحِ إلى فلان أن الأمر كذا وكذا.

فقوله جلّ وعلا: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ أي: مَلكيّاً أو إنسيّاً.

*** الوحي العامّ:**

وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ أي: إلهاماً، فهذا هو الوحي الإلهامي الإعلامي وهو: أن يُلقي في قلب هذا العبد كلمات ومعاني لا يعرف كيف وصلت إليه، ولا من أين اتصلت به، ولا يُحدّ لها حدٌّ ولا جهة، فهذا يناله البشر من الأوّلين رضي الله عنهم، وتناله النباتات والجمادات والحيوانات والسماوات والأرض.

فمن هذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] فهذا وحي إعلام وإلهام، فأعلمها الله تعالى بما فيه مصلحتها ومعاشها وقوامها، بأن تتصرف على هذا الوجه.

ولا تظننّ أن الله تعالى قد ألهم وأعلم النحل كيفية معاشها وكسبها وأهمل باقي الحيوانات !!!.

فكل الحيوانات مفتقرة إلى إعلامات وتوجيهات من الله تعالى، فأوحى إليها كما أوحى إلى النحل، وأعلمها بطرق معاشها وقوامها، فهذا كله من الإعلام العام ـ أي: الوحي العام ـ.

ومن هذا أيضاً إلى الأرض كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ الآيات.

فالأرض هي من جملة مَنْ نال هذا الوحي، وهو الإعلام من الله تعالى، فأمرها سبحانه بالوحي أن تُحدّث وتُخبر عمّا تعلم ممّا عُمِلَ على ظهرها.

كما بيّن ذلك صلى الله عليه وآله وسلم، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها»؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على

ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا»، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فهذه أخبارها»[1].

فالأرض تشهد على ما شهدته وشاهدته من أعمال عُمِلت على ظهرها. وإنّ كل مَنْ شَاهَدك فهو شهيد عليك.

وقال بعضهم: معنى ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: أن الأرض وإن شاهدت ما عُمِلَ عليها من الأفعال والوقائع، لكنها ما شهدت بما شاهدت، وإنما شَهدت بما أُخبرت وأوحي إليها.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: أعلمها وأخبرها عمّا وقع على ظهرها، فشهدت بخبر الله تعالى، لأنّ الشهادة بخبر الله تعالى أقوى من رؤيا العيان. كما تشهد الأمة المحمدية على الأمم السابقة يوم القيامة، أنهم قد بلّغتهم رسلهم، مع أنهم لم يشهدوهم بأبصارهم، ولكن الله تعالى أخبرهم بذلك في القرآن الكريم، قال سبحانه: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] الآيات.

لأن رؤيا العيان قد تخطئ، أما خبر القرآن فلا يخطئ، وذلك لأن صدقه ثابت بالمعجزات والبراهين العقلية.

وكذلك فإن الوحي على معنى الإلهام والإعلام قد نالته السماوات أيضاً، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢] أي: أعلم كل سماء بأوامرها، وأعلم أهلها أيضاً بذلك.

---

(١) كما في مسند الإمام أحمد (٢/٣٧٤) وسنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الصراط (٢٤٣١).

وكل سماء لها أوامر خاصة بها، وهذه الأوامر تظهر في عالم الأرض كما قال تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

وقد أطلع الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج على جميع تلك الأوامر والخصائص، ومن تلك الأوامر والخصائص مثلاً: السماء الأولى منها الشرائع والأحكام، وعلم النسخ والتبديل، ولذلك نزل القرآن منها، ومن السماء الثانية الودّ والرأفة والرحمة التي تتنزل على الخلائق... وهكذا.

*** الوحي النبوي:**

لقد جمع الله تعالى جميع مراتب، وطرق الوحي، جمعها وأعطاها لرسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وأول ما بدأ به الوحي كان بالرؤيا الصادقة، وذلك ليستعد جسمه الشريف لنزول الوحي عليه في اليقظة، ولئلا يُفاجأ بذلك فيثقل عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ورد في الحديث عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء[١]، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد» الحديث[٢].

فالرؤيا التي تنفلق عن عالم المنام تجيء مثل فلق الصبح تماماً،

---

(١) الخلوة واعتزال الناس.

(٢) كما في صحيح البخاري (٣) ومسلم في كتاب الإيمان (١٦٠).

فكما ينفجر الفجر عن هذا النور الظاهر ـ وهو نور الصباح ـ فكذلك أيضاً هذه الرؤيا المنامية التي انفلقت وانفجرت عن عالم المنام، فإنها تأتي بالواقع موافقة تماماً، عَلناً ظاهرة بلا خفاء، مثل فلق الصبح، فَتَطَابَقَ هذان الفلقان ـ أي: الانشقاقان ـ رؤيا تنفلق تنبعث عن عالم المنام، فتظهر في عالم الشهادة مثل انفجار الفجر، وانفلاق الصبح بلا خفاء.

وهذا مما يدل على أن رؤياه صلى الله عليه وآله وسلم كانت خالصة نزيهة، ليس فيها أضغاث أحلام أو حديث نفس، أو تلاعب شيطان، إنما هي رؤيا صادقة تنفلق عن عالم الرؤيا الحق، فلذلك كانت تجيء مثل فلق الصبح الحقّ.

ومن مراتب الوحي أيضاً: الوحي بالإفاضة: كما جاء في الحديث: «فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ. قال صلى الله عليه وآله وسلم: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾»[1].

فهذا الضمّ الجبريلي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو إيحاء وإلقاء وفيض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ جبريل عليه السلام يتلقّى الوحي عن الله تعالى، ويحمله بالحمل

---

(١) كما في صحيح البخاري (٣) ومسلم (١٦٠).

الجبريلي، ثم يُفيضه على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فانظر إلى قوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أعظمها!!!. وانظر إلى تحمله صلى الله عليه وآله وسلم لأعباء هذا الوحي، وهذه العلوم التي تُلقى عليه!! إنها لقوة عظيمة هي أعظم من الجبال.

ولقد أشار الله تعالى إلى عظمة تنزّل الوحي، وإلقاء كلام الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فلو نزلت آية واحدة على جبل عظيم مِنْ جبال الدنيا لتهدّم وتصدّع وتشقّق، لأنّ كل حرف من كلام الله تعالى لمّا ينزل من منزله العالي ينزل وله معنى، ولكنك لا تفهم المعنى إلا بانضمام حرف إلى حرف، لأنك ما تفهم إلا المركبات، أما الأنبياء فيفهمون البسيطات والمركبات، لأن الكلمات إذا بسطتها صارت حروفاً، وكل حرف له معنى.

وإليك مثالاً يوضح ذلك: فلو وضعنا مائة خط من حرف الواحد /١١١/ فإن أردت عدّها قلت: واحد واحد... وإن أردت عدّها بشكل آخر، فالواحد مع الواحد يُقرأ: أحد عشر، ومع واحد آخر: مائة وأحد عشر وهكذا... إذن فلها اعتباران: الأول بسيط، والثاني مركب، فإن اعتبرت البسيط أعطيتها حكماً، وإنِ اعتبرت المركب أعطيتها حكماً آخر.

فالله تعالى لمّا يُنزّل الوحي على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم يُفهمه القرآن مركباً وحروفاً، فهو يفهم كل حرف وما اختصّ له، وما

اشتمل عليه من أسرار ومعانٍ، ويفهمها مركبة. أي: حرفاً مع حرف، وكلماتٍ وجُمَلاً وآيات وهكذا...

وهذا علم نبوي خصّ الله تعالى به الأنبياء عليهم السلام، ولأتباعهم بالوراثة على مقدارٍ ما.

ولهذا قال بعضهم: كل حرف لمّا ينزل من منزله العالي ينزل وله من المعاني والأسرار كأن جبلاً ينزل من السّماء.

فلقد أعطى الله تعالى للنبي عليه الصلاة والسلام قوّة في التحمّل أعظم من قوة الجبال كما تقدم.

أما معنى الآيات: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أي: أنت يا محمد وإن كنت ما درست وما تعلّمت القراءة والكتابة، فأنت الآن ما تقرأ من نفسك، بل تقرأ باسم ربك الذي ربّاك وعناك بالعناية الخاصّة.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ فهذا الإنسان الكامل السميع البصير المدرك العاقل، خلقه الله تعالى من علق، فكم هناك مِن مراتب بين كونه إنساناً وكونه علقاً، فالذي قَدرَ على أن يُطوّر هذه العلقة من مرتبة إلى مرتبة في الكمال، حتى يجعلها إنساناً كاملاً، ذا عقل وشعور؛ قادر على أن يعلمك يا محمّد علوماً ما تعلمتها من بشر، بل يفيضها عليك سبحانه.

فهذا النوع من الوحي يسمّى: الوحي بالإفاضة، وليس في هذه الطريقة من الوحي كلام، فجبريل عليه السلام لم يُكلّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمّا ضمّه إليه، وإنما أفاض عليه معاني، وألقى عليه علوماً إلقاءً.

وقد فعل هذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما إذ قال: ضَمّني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى صدره وقال: «اللهم علّمه الحكمة»[1] وفي رواية[2]: «اللهم علّمه الكتاب» فأفاض عليه صلى الله عليه وآله وسلم ودعا له.

ومن مراتبه: الوحي بالنفث: وهو أن ينفث الملك نفثاً في رَوْعِ وقلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هذا ما جاء في الحديث، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الروح الأمين» وفي رواية[3]: «إن روح القدس» يعني: جبريل عليه السلام «نفث في رُوعي» والنفث هو: النفخ مع شيء من الريق، لأن النفخ هو هواء خالص، والتفل: ريق خالص، والنفث: هواء مصحوب بشيء من الريق.

فهنا نفث جبريل عليه السلام ـ أي: بنفخ جبريلي مع ريق جبريلي في فؤاد وقلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. «أنه ليس مِنْ نفس تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب» أي: الطلب الجميل الشرعي «ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله؛ فإنه لا يُنال ما عنده إلا بطاعته»[4].

---

(١) كما في صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما (٣٧٥٦).

(٢) عند الإمام أحمد (١/٣٥٩) والبخاري في كتاب العلم، باب /١٧/ (٧٥) والمناقب (٣٧٥٦).

(٣) في الحلية (١٠/٢٧) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

(٤) انظر مصنف ابن أبي شيبة (٨/١٢٩) ومصنف عبد الرزاق (١١/١٢٥) وشعب البيهقي (٢/٦٧ و٧/٢٩٩) وقال الحافظ في الفتح (١/٢٠): أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة، وصححه الحاكم.

ومن مراتبه: **الوحي مثل صلصلة الجرس**: وهو أشد أنواع الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذا النوع من الوحي.

فقد جاء في صحيح البخاري[1]، عن السيدة عائشة رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ، فيفصم عنّي وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول».

قالت عائشة رضي الله عنها: (ولقد رأيته صلى الله عليه وآله وسلم ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقاً) الحديث.

وفي مثل هذا النوع من الوحي ينتقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطور الملكي، وتتصل الروح الملكية الجبريلية المُلْقية بالروح المحمدية المصغية المتلقية، فهنا يتوجّه جبريل عليه السلام بالإلقاء وبقوّة، ويتوجّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمَلَك بالإصغاء بكليّته، وفي هذا يتطوّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الطور البشري إلى الطور الملكيّ، ولشدة ذلك يغطّ عليه الصلاة والسلام، فلا يكلّم أحداً ولا يكلّمه أحد.

---

(١) في كتاب بدء الوحي (٢) وهو في صحيح مسلم في كتاب الفضائل، باب /٢٣/ (٢٣٣٣).

وفي هذه الحالة يبقى جبريل عليه السلام على ملكيته، وينتقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطور الملكي، ويجتمع مع جبريل عليه السلام بالملكيّة، وجبريل عليه السلام يشتدّ أمره بالإلقاء، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشتدّ أمره بالإصغاء، وهذا الاشتداد من الطرفين يعطي ثقلاً في نور روح جبريل عليه السلام، وثقلاً في روح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويظهر أثر ذلك على جسم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيعرق عليه الصلاة والسلام، وبعدما ينقضي الوحي يرجع إلى ما كان عليه، فيشعر صلى الله عليه وآله وسلم ببرودة قوية من شدة العرق، ويقول حينذاك: «زملوني زملوني» فهذا هو سبب عرقه صلى الله عليه وآله وسلم وقوله: «زمّلوني».

وفي هذا النوع من الوحي يعتري جسمَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الثقل القوي، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام البخاري[1]، عن سيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه ـ وهو من كَتَبَةِ الوحي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: (أنزل الله ـ أي: الوحيَ ـ على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خِفت أن تُرَضَّ فخذي) أي: لثقلها.

ولما نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم حجة الوداع، ونزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ...﴾ الآيات [المائدة: ٣]، كان على ناقته، فثقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) في كتاب الصلاة، باب ما يذكر في الفخذ، الفتح (١/٤٧٨)، وينظر في كتاب التفسير (٤٥٩٢).

حتى كادت أن يُدقّ عضدها[1]، وفي رواية: (تضرب بجرانها على الأرض)[2].

وفي مرة أخرى[3] قعدت الناقة بجرانها على الأرض.

وفي هذا النوع من الوحي كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يسمعون دويّاً كدويّ النحل ولا يفهمون معنىً، كما في الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوحي يُسْمَعُ عند وجهه كدويّ النحل).

فأنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة، فَسُرِّيَ عنه صلى الله عليه وآله وسلم فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنَّا وأرضنا» ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنزل عليّ عشر آيات مَنْ أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم عشر آيات[4].

*** ما معنى: مثل صلصلة الجرس؟**

اعلم أن كلام الملك في كيفيته ووضعه ليس ككلام البشر،

---

(١) كما في المسند (٦/٤٥٥) عن السيدة أسماء بنت يزيد رضي الله عنها.

(٢) كما في المسند (٦/١١٨).

(٣) كما في الدر المنثور، أول سورة المائدة وعزاه لابن جرير، عن سيدنا أنس رضي الله عنه. وينظر للتوسع طبقات ابن سعد (١/١٩٧) وسبل الهدى والرشاد (٢/٢٤٤) ودلائل النبوة (٧/٥٢) وغيرها.

(٤) كما في المسند (١/٣٤) وسنن الترمذي (٣١٧٢).

فكلام البشر ينشأ عن هواء صاعد إلى الجوّ، مارّ على هذه الأضراس والأسنان، والألوية والمقاطع، فيظهر هذا الكلام، ويتكيف بكيفيّة وجوديّة بعدما كان نَفَساً، فما هو إلاّ هواء مرّ على تضاريس معيّنة، فخرج حروفاً وكلمات وجوديّة، تحمل معاني قويّة، وهذا من آيات الله الكبرى. كما أن الإنسان لمّا يتكلم يقطع كلامه، لأن مادة الكلام موقوفة على النفس، أما الملائكة فلا يحتاجون في كلامهم إلى نفس، لأنّ نشأتهم تختلف عن نشأة البشر، ولا يحتاجون إلى الهواء، فهم لمّا يتكلمون لا يقطّعون الكلام، فكلامهم متتابع متوالٍ دون انقطاع.

فقوله عليه الصلاة والسلام: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس» أي: يأتيني بالملكية كما هو الملك، ويكون كلامه بالوحي متتابعاً مستمراً دون انقطاع، مثل صلصلة الجرس من حيث التتابع والاستمرار، لا من حيث الطّنين، إذ إن صوت الملك أجمل وأكمل من صوت الجرس. وهذا النوع من الوحي ـ أي: مثل صلصلة الجرس ـ هو من الأنواع التي تعتري الملائكة عليهم السلام لمّا يكلّمهم الله تعالى بالوحي، فوحي الله تعالى إليهم يأتيهم في مثل صلصلة الجرس، أو مثل جرّ سِلْسِلة على صفوان ـ أي: كلاماً متتابعاً ـ كما في الحديث الذي رواه أبو داود[1]، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا تكلّم الله بالوحي سَمع أهل السماء ـ وفي رواية[2]: «سمعت الملائكة للسماء صلصلة كجرّ

---

(١) في كتاب السنة (٤٧٣٨).

(٢) ينظر الدر المنثور عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ الآية [سبأ: ٢٣].

السلسلة على الصفا» والسلسلة هي: الحلقات المتواصلة، فإذا جررتها على الصفا فإذا بها متتابعة وراء بعضها البعض، فيرد عليهم الكلام متتابعاً ـ فيُصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، حتى إذا جاءهم جبريل فُزّع عن قلوبهم» قال: «فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحقَّ الحقَّ» وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ﴾ الآية [سبأ: ٢٣].

وجاء في البخاري[١] عنه عليه الصلاة والسلام: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعَاناً لقوله ـ أي: لقوّة ما اعتراهم من معاني الوحي الإلّهي ـ كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير».

وقوله: «وهو العلي الكبير» يدلّ على تنزّه كلام الله تعالى أن يُشبه كلام أحد من خلقه، فتنزّه عن المثيل والشبيه في تكلّمه وكلامه سبحانه، فهو العلي الكبير جلّ وعلا.

وهذا النوع من الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُعتبر من أقوى أنواع الوحي، لأنه توجّه على القلب مباشرة وعلى الروح، وتصير الإدراكات الحية خاضعة للإدراك القلبي الروحاني، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام ينشغل عن سماع كلام الصحابة رضي الله عنهم، حتى إنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يغطّ.

---

(١) في كتاب التفسير (٤٨٠٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا نَزل عليه الوحي ـ أي: بالقرآن ـ كُرِبَ لذلك وتربّد وجهه ـ يعني: اشتد الأمر عليه صلى الله عليه وآله وسلم، وتغيّر وجهه الشريف عليه الصلاة والسلام ـ.

قال: فأوحي إليه ذات يوم، فلمّا سرّي عنه قال: «خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، الثيّب بالثيّب، والبكر بالبكر، الثيّب جَلد مائة ثم رجمٌ بالحجارة، والبكر جلد مائة ثم نفي سنة» الحديث[1].

وقد نُسخ هذا الحكم بحكم آخر وهو الجلد للبكر، والرجم للثيب كما هو معروف.

ومما يدل على ذلك أيضاً: أنه عليه الصلاة والسلام كان يتغيّر، ويشتدّ عليه الأمر عند نزول الوحي القرآني عليه ـ أي: في مثل هذا النوع من الوحي ـ ما جاء في حديث[2] السيدة عائشة رضي الله عنها عندما برّأها الله جلّ وعلا قالت: فأخذه ـ أي: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ ما كان يأخذه من البُرَحاء ـ أي: الشدّة في حالة نزول الوحي ـ حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجمان من العرق في يوم شاتٍ، فلمّا سرّي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلّم بها أن قال لي: «يا عائشة احمدي الله

---

(١) في المسند (٥/٣١٧) وصحيح مسلم في كتاب الحدود، باب حد الزاني (١٦٩٠) وكتاب الفضائل (٢٣٣٤).

(٢) الحديث في المسند (٦/١٩٤) وصحيح البخاري في كتاب التفسير (٤٧٥٠) وصحيح مسلم كتاب التوبة، باب في حديث الإفك (٢٧٧٠).

فقد برّأك الله» قالت: فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ الآيات من سورة النور.

ومما يدلّ على ذلك أيضاً، ما جاء في المسند، وصحيح مسلم[1]، عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة ـ أي: غشي عليه، وليس المراد بالإغفاء: النوم، لأن القرآن نزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقظان ـ ثم رَفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟

قال: «أُنزلت عليّ آنفاً ـ أي: الآن ـ سورة» فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أتدرون ما الكوثر»؟

فقلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإنه نهر وَعَدَنِيهِ ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة في الجنة، آنيته عدد النجوم» فهو نهر في الجنة، وله فرع يمتدّ إلى عالم الموقف: يسمى الحوض، فالحوض إنما يستمدّ من الكوثر.

«فيُختلج العبد منهم، فأقول: يا رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثَ بعدك» يعني: إن هذا ارتدّ بعد إيمانه، أو نافق.

---

(١) المسند (٣/١٠٢) وصحيح مسلم كتاب الصلاة، باب /١٤/ (٤٠٠).

واعلم أن هذا الحديث لا ينافي الحديث الذي رواه البزار والبيهقي وغيرهما، وشهد بصحته الحافظ العراقي[1]، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «حياتي خير لكم تُحْدِثُون ويُحْدَثُ لكم، ومماتي خير لكم تعرض عَلَيَّ أعمالكم: فما رأيت من خير حمدْتُ الله، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم».

فحديث: «ما تدري ما أحدثوا بعدك» هو في الكفار المرتدّين على أعقابهم، فأعمالهم لا تُعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه لا فائدة في عرضها عليه صلى الله عليه وآله وسلم، فهم كفرة.

أما المؤمنون فَتعرض عليه صلى الله عليه وآله وسلم أعمالهم لفائدة وهي: ما رأى من خير حمد الله، وما رأى من غير ذلك استغفر لهم. أما الكفار إذا عُرِضت أعمالهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأي فائدة في هذا العرض؟!! فليس فيهم إيمان حتى يستغفر لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا النوع من الوحي القرآني ـ أي: الذي هو مثل صلصلة الجرس ـ يتوجّه على القلب مباشرة قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الآية [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤].

فهذا الوحي موجّه على القلب مباشرة بالمعنى واللفظ والسماع، ولكن الإدراكات الحسيّة تتبع الإدراكات الروحية القلبية، وهذا النوع من الوحي أعلى من الوحي الموجّه على القلب عن طريق الأذن أو

---

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٢٤) وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. وينظر في طرح التثريب (٣/ ٢٩٧) والقول البديع ص (٣٢٤) للحافظ السخاوي.

البصر، مثل وحي الله تعالى إلى موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣].

فعن طريق الأُذُنِ يصل الوحي إلى القلب، فهو مسموع لموسى عليه السلام ولمن حوله، أما الوحي الموجّه مباشرة على القلب فلا يسمع مَنْ حوله لَه كلاماً، ولا يفهمون منه معنى، إلا دويّاً كدويّ النّحل كما ورد.

ومن هنا يتبيّن لك أَنّ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن الكريم أعظم من الوحي إلى الكليم موسى عليه السلام، ومع ذلك فقد نال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نوعي الوحي.

فلقد سَمِـعَ ليلة المعراج الكلام من الله تعالى، على النوع الذي كلّم الله به موسى عليه السلام بسماع الأذن، وأَوحى إليه تعالى وكلّمه بالوحي الموجّه على القلب تماماً ومباشرة، فنال الرتبتين صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن طرق الوحي أيضاً: أن يتراءى الملك ـ أي: جبريل عليه السلام ـ بالحقيقة الجبريلية، فيوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد حصل هذا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرتين أو أكثر، فمرّة في بَطحاء مكة، وذلك بطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرآه وله ستمائة جناح، كل جناح قد سدّ الأفق[1].

وكذلك رآه وهو جالس على كرسيٍّ بين السماء والأرض[2]،

---

(١) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن (٣٢٧٤).

(٢) كما في أول صحيح البخاري (٤).

ورآه على الحقيقة الجبريلية أيضاً ليلة المعراج، وله ستمائة جناح قد ملأ الخافقين[1].

وهناك نوع من أنواع الوحي أيضاً وهو: أن يتمثل جبريل عليه السلام بصورة رجل، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتقدم[2]: «وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». فيكلّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلاماً مسموعاً، وهو وحي إلى القلب بواسطة الأذن، فمرة يتمثل جبريل بصورة الصحابي دحية ابن خليفة الكلبي رضي الله عنه ـ وهو من أجمل الناس ـ وفي هذا رمز من الله تعالى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أَنّ هذا الواسطة وهو جبريل الأمين عليه السلام الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] فهو رسول الله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وشَرَفُ المرسَلِ على قدر عظمة وشرف المرسل إليه، ولَمّا كان هو أكرم الخلق على الله تعالى؛ كان الواسطة والرسول إليه وهو جبريل عليه السلام أفضل وأعظم الملائكة، وهذا يدلّ على كرامة وشرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند الله تعالى.

ثم إنه في تمثّله في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه ـ وهو جميل حسن الوجه ـ فيه رمز؛ كأن الله تعالى يقول: يا محمد ليس بيني وبينك إلا الكمال والجمال.

---

(١) كما في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق، باب /٧/ (٣٢٣٤) ومسلم في كتاب الإيمان باب /٧٧/ (١٧٧).

(٢) ص (١٠٠).

وأحياناً كان يتمثل في غير صورة دحية رضي الله عنه، بل بصورة رجل غير معروف لكن فيه الجمال والكمال؛ وهذا كما جاء في الحديث عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد، صلى الله عليه وآله وسلم... الحديث[1]. وهذا هو جبريل عليه السلام، أما قوله: «شديد سواد الشعر» فقد ورد في رواية[2]: «شديد سواد شعر اللحية» ـ وهذا فيه من الجمال ما فيه ـ وفي رواية المسند[3]: (فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيّه على فخذيه).

ولقد اختلف العلماء هنا: هل أن جبريل عليه السلام وضع كفّيه على فخذيه هو، أم على فخذي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فبعضهم قال: إنما وضع كفيه على فخذيه هو، أي: جلس جلوس المتعلّم أمام المعلِّم، جلسة المصلّي أثناء قعوده في صلاته. وقال

(١) في صحيح مسلم، كتاب الإيمان (٨).

(٢) عند ابن حبان (١٦٨).

(٣) (١٢٩/٤) عن سيدنا أبي عامر الأشعري، وعند أبي داود في كتاب السنة (٤٦٩٨) عن سيدنا أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما.

بعضهم: بل لَبَّسَ الأمر على الصحابة، ووضع كفّيه على فخذي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يظنّوا أنه من الأعراب.

والحق أنه فعل هذا وهذا، كما دلت عليه روايات الحديث، فقد جاء في رواية[1]: أنه لما دخل قعد بعيداً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووضع كفيه على فخذيه هو، متأدباً بحضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: «أأدنو يا رسول الله»؟ قال: «اُدْنُ»، ثم قال: «أأدنو»؟ فقال: «ادن»... وهكذا إلى أن أسند ركبتيه إلى ركبتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووضع كفّيه على فخذي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. «ثم قال: يا محمد» يريد من هذا النداء: الوصف الذي اتّصف به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو: كثرة المحمودية، لا الاسم. وفي رواية ابن خزيمة[2] أنه قال: «يا رسول الله أخبرني عن الإسلام»؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الإسلام أن تشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

قال: «صدقت» فعجبنا له يسأله ويصدقه؟!!

قال: «فأخبرني عن الإيمان»؟

قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه».

---

(١) عند الإمام أحمد (١/٥٢) والنسائي (٨/١٠١).

(٢) ينظر أول حديث في صحيح ابن خزيمة، وصحيح مسلم (٨)، والمسند (٤/١٢٩).

قال: «صدقت» قال: «فأخبرني عن الإحسان»؟

قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فهكذا هو يسأل عن الإسلام أي: الأعمال الظاهرة، ثم عن الإيمان أي: العقائد الباطنة، ثم عن الإحسان أي: كمال الإسلام والإيمان.

فالإحسان كمال الإسلام والإيمان، وهذا هو الدين كله: إسلام وإيمان وإحسان، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإنه جبريل أتاكم يُعلمكم دينكم».

فالإسلام هو ما يَبحث عنه الفقهاء من العبادات وأحكامها، **والإيمان** هو ما يبحث عنه علماء التوحيد وأهل العقيدة، **والإحسان** هو ما يبحث عنه العارفون وعلماء الصوفية؛ فالكل من الدين.

ولقد ذكر الإحسان ثالثاً ليدل على أنه لا يُمكن الوصول إلى الإحسان إلا بكمال الإسلام والإيمان.

فقوله: «أخبرني عن الإحسان» أي: إحسان الإسلام والإيمان. أي: كمال الأمرين.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أن تعبد الله كأنك تراه» أي: تعبده مشاهداً له بعيني قلبك، كأنك تراه بعيني بصرك. وهذا هو مقام المشاهدة، فإذا كنت لا تستطيع ذلك فكن من أهل المراقبة، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» أي: راقب ولاحظ دوماً أن الله يراك ويراقبك. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

هذا هو مقام المراقبة، وهو دون مقام المشاهدة. ولقد ذكر صلى الله عليه وآله وسلم مقام المشاهدة أولاً شحذاً للهمة نحو الأعلى.

ولقد كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لمّا يطوف حول الكعبة ـ والطواف عبادة ـ كان يُشاهد ربه، حتى كان الناس يسلمون عليه فلا يرد عليهم، فلمّا شكوه إلى أبيه قال: (يا أبت إني كنت أطوف حول الكعبة أتراءى الله تعالى) فهو يُشاهد ربه بعيني قلبه كما لو أنه يراه بعيني بصره.

وهذا هو مقام الإحسان الذي أخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم، وجميع ما ذكره العارفون عن مقامات وأحوال كلها تفصيل وبيان لهذا المقام أي: مقام الإحسان.

قال: «فأخبرني عن الساعة»؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» واعلم هنا أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد آتاه الله عِلمَ الساعة، وكشف له عنها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ـ٢٧].

وقال عليه الصلاة والسلام: «فتجلّى لي كل شيء وعرفت»[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم مرة أخرى: «من أحب أن يسأل

(١) طرف من حديث طويل رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٢٤٣) والترمذي في كتاب التفسير (٣٢٣٢) عن سيدنا معاذ رضي الله عنه، وقد جمع طرقه الشيخ الإمام في كتابه (صعود الأقوال ورفع الأعمال).

عن شيء فليسأل عنه، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به مادمت في مقامي هذا»[1].

إلا أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يُؤذن له بالإخبار عن موعد الساعة فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

وقد أجاب هنا كما أجاب سيدنا جبريل عليه السلام لما سأله سيدنا عيسى عليه السلام، ففي الحديث الذي رواه الحميدي في نوادره بسنده، أن عيسى عليه السلام سأل جبريل عليه السلام عن الساعة، فانتفض جبريل بأجنحته وقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

قال ـ أي: جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «فأخبرني عن أماراتها»؟ أي: علاماتها.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أن تلد الأمة ربّتها ـ وفي رواية[2]: «ربها» أي: سيدها ـ وأن ترى الحفاة العُرَاةَ العَالَةَ ـ أي: الفقراء ـ رِعَاءَ الشَّاءِ يتطاولون في البنيان» أي: تراهم صاروا أغنياء أثرياء يتفاخرون بالبنيان.

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أن تلد الأمة ربتها» فأصح الأقوال في ذلك: أنه في آخر الزمان يكثر القتل والهرج، وتعتدي القبائل بعضها على بعض، فلمّا تأتي قبيلة وتهاجم قبيلة أخرى، تسبي

---

(١) كما في صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت الظهر عند الزوال (٥٤٠) وصحيح مسلم كتاب الفضائل باب /٣٧/ (٢٣٥٩) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) عند البخاري في كتاب الإيمان (٥٠) وصحيح مسلم كتاب الإيمان (١٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وتأخذ من قدرت عليه، ويكون من جملة السّبي أمٌّ لها ولد صغير. فعندما يكبر هذا الولد، وتصبح له ثروة يشتري أمّه من تلك القبيلة المعادية، فهو قَبل أن يشتريها يقال: هي مملوكة أَمَةٌ، وهو حُرٌّ، فلولا حقّ الأمومة لاعتبرت هي أَمَةً له وهو سيدها ـ أي: مالكها ـ.

قال: ثم انصرف، فلبثت مليّاً، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عمر أتدري من السائل»؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

وهكذا تمثل جبريل عليه السلام بصورة رجل عليه صفة الكمال والجمال، وهو على غير صورة دحية الكلبي، ولو كان على صورته لعرفوه.

*** ومن أنواع الوحي:**

الوحي بسبب، وبواسطة العروج الروحاني، أو الروحاني والجسماني معاً.

فمن ذلك ما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

فأوحى الله تعالى إليه، وعلّمه بسبب العروج الروحاني، إذ عرج بإبراهيم عليه السلام روحاً لا جسماً.

أما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد عُرج به روحاً وجسماً، فنال من العلوم ما نال، وأوحى الله إليه ما أوحى، كما قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾.

الوحي في بعض الخصائص القرآنية، والبشائر الإلٓهية عن طريق إسرافيل عليه السلام

وهذه المسألة اختلف فيها العلماء، وهي: هل كان ينزل بالوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غير جبريل؟

والمعتمد أن الوحي القرآني إنما نزل بواسطة جبريل عليه السلام؛ لا بغيره أبداً بدليل قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

وأما في غير الوحي القرآني، كالوحي ببعض خصائص الآيات، أو بعض البشائر الإلٓهية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد يأتي عن جبريل عليه السلام أو غيره كإسرافيل عليه السلام.

كما جاء في الحديث، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمع نقيضاً ـ أي: صوتاً ـ من فوقه، فرفع رأسه فقال: «هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلاّ اليوم، فنزل منه ملك» ـ والأكثرون على أنه إسرافيل عليه السلام ـ فقال: «هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم، فسلّم وقال ـ أي: لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «أبشر بنورين أُوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منهما إلا أُعطيته»[1] أي: أعطيت ثوابه وأسراره.

---

(١) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٦) وسنن النسائي في الافتتاح.

فهنا نزل إسرافيل عليه السلام يُخبر عن خصوصية هذه الآيات، أمّا نفس الآيات فقد نزل بها جبريل عليه السلام. فافهم.

وممّا يدل على أنه إسرافيل عليه السلام، ما جاء في الحديث الذي رواه الطبراني وغيره بأسانيد كثيرة[1]، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لقد هبط عَلَيَّ ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يَهبط على أحد بعدي ـ فقول جبريل في الحديث السابق: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم: دل على أنه إسرافيل عليه السلام ـ وهو إسرافيل، وعنده جبريل فقال: السلام عليك يا محمد، ثم قال: أنا رسول ربك إليك، أمرني أن أُخيرك إن شئت نبياً عبداً، وإن شئت نبياً ملكاً.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فنظرت إلى جبريل عليه السلام، فأومأ جبريل إلَيّ أن تواضع» أي: اطلب العبدية.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك: «نبياً عبداً» وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو أني قلت نبياً ملكاً لسارت الجبال معي ذهباً» الحديث. إلا أنه صلى الله عليه وآله وسلم أُعطي خصوصية المَلكية بقوله: «وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض»[2] ولكنه من تواضعه صلى الله عليه وآله وسلم اختار مقام العبدية.

---

(١) ينظر مجمع الزوائد (١٩/٩) فقد ذكر له عدة طرق.

(٢) طرف حديث رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد (١٣٤٤) و مسلم في كتاب الفضائل (٢٢٩٦) عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه.

ومن أنواع الوحي: الوحي عن طريقة الكشف الكليّ، والتجلّي الظاهر:

وقد حصل هذا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عدة مرات.. ومن ذلك: ما جاء في الصحيحين[1]، عن السيدة عائشة رضي الله عنها في حديث صلاة الكسوف، يوم كُسفت الشمس، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما من شيء كنت لم أكن أُرِيتُه إلا قد رأيته في مقامي هذا؛ حتى الجنة والنار، وإنه قد أُوحي إليّ أنكم تُفتنون في القبور مثل أو قريباً من فتنة المسيح الدجال، فيؤتى أحدكم فيقال: ما علمك بهذا الرجل؟

فأما المؤمن أو الموقن فيقول: هو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، جاءنا بالبيّنات والهدى؛ فأجبنا وآمنّا واتّبعنا ـ ثلاث مراتٍ.

فيقال له: نم صالحاً ـ أي: استرح وتنعّم، لا النوم المعروف إنما المراد منه الاستراحة من تعب الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [عم: ٩] أي راحة ـ قد علمنا إن كنت لموقناً به» أي: نحن نعلم من كتابك المكتوب عليك أنك موقن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد توافق كلامك مع كتابك.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته» ففي هذا الوحي انكشفت له الأمور انكشافاً عاماً، ورأى العوالم كلها.

---

(١) البخاري في كتاب العلم، باب /٢٤/ (٨٦) ومسلم في الكسوف (٩٠٥) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

وفي رواية أن الصحابة قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك، ثم رأيناك كَعكَعت ـ أي: تراجعت ـ.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني رأيت الجنة فتناولت عنقوداً ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأُريْتُ النار فلم أَرَ منظراً كاليوم قطّ أفظع»[1]. ويستفاد من الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم يتجلى لكل واحد في قبره عندما يسأله الملكان: ما تقول في هذا الرجل؟ فيتجلّى له بصورة حسّية مناسبة لإيمانه ويقينه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هذا الوحي أيضاً ما جاء أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سلوني عمّا شئتم» قال رجل: مَن أبي؟ ـ وكانوا ينسبونه إلى غير أبيه ـ قال: «أبوك حذافة» وقام آخر فقال: من أبي يا رسول الله؟ فقال: «أبوك سالم مولى شيبة».

ولو قام العالم كله وسأله وقتئذٍ لأجابهم صلى الله عليه وآله وسلم عن أسئلتهم، لأنه كُشِفَ له عن جميع المغيبات فقال: «سلوني عما شئتم» الحديث[2].

ومن هذا أيضاً ما جاء في الحديث عن سيدنا عبد الله بن عمرو

---

(١) شطر حديث رواه البخاري في كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة (١٠٥٢) ومسلم أيضاً في كتاب الكسوف (٩٠٧) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) كما في صحيح البخاري، كتاب العلم باب /٢٨/ (٩٢) ومسلم في كتاب الفضائل (٢٣٦٠) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ابن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه كتابان فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان»؟

فقلنا: لا يا رسول الله إلاّ أن تُخبرنا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجمل على آخرهم فلا يُزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً».

ثم قال للذي في شماله: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النّار، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجمل على آخرهم فلا يُزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً».

فقال أصحابه: ففيمَ العمل يا رسول الله؛ إن كان أمرٌ قد فُرِغ منه؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «سدّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يُختَم له بعمل أهل الجنة؛ وإنْ عَمِلَ أيَّ عَمَلٍ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار؛ وإن عمل أيّ عمل».

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيديه فنبذهما ـ أي: نبذ الكتابين ـ ثم قال: «فَرَغ ربكم من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير»[1].

فهنا أشكل على الصحابة رضي الله عنهم أنه ما فائدة العمل مادام الأمر مقضياً؟ فمن كان من أهل الجنة فما فائدة عمله؟ ومن كان من أهل النار فما فائدة عمله؟

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/١٦٧) والترمذي في كتاب القدر (٢١٤٢).

فيقال: لا يمكن أن تدخل الجنة إلا بعمل أهل الجنة، لأن الذي قضى لك أن تدخل الجنة قضى لك أن تعمل بعمل أهل الجنة، والذي قضى لك أن تكون من أهل النار قضى لك أن تعمل بعمل أهل النار ولابدّ. أما أن تذكر النتيجة وتهمل المقدمة فهذا لا يصح، لأن السبب والمسبب كلاهما بقضاء الله تعالى وقدره، فالذي قدّر لك الجنة قدّر لك عمل أهل الجنة وهكذا..

وفي حديث آخر لما سئل صلى الله عليه وآله وسلم عن مثل هذا قال: «اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خلِق له»[1].

ولم يقل: كلٌّ مُكره على ما خلق له، إنما ميسّر بالتيسير الكوني. فالكافر لمّا يكفر، يكفر باختيار منه؛ ومع ذلك فبقضاء الله وقدره دون إكراه أو إجبار عليه.

واعلم أن هذين الكتابين من عالم الغيب الروحاني، تمثّلا بيدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصورة محسوسة، فشاهدهما أصحابه على هيئة كتب صورية، وهذا من عالم المثال، أما حقيقة هذين الكتابين فمن عالم الغيب.

فهذا الاطّلاع هو من باب الإيحاء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أطلعه الله تعالى على أسماء أهل الجنة، وأسماء أهل النار، وأسماء آبائهم وقبائلهم وهكذا...

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن (٤٩٤٥) وينظر في كتاب الجنائز (١٣٦٢) ومسلم في كتاب القدر (٢٦٤٧) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

ومن جملة هذا الوحي ما عُرِض عليه صلى الله عليه وآله وسلم من الأنبياء قبله وأممهم، حتى عرضت عليه أمته الذين يؤمنون به إلى يوم الدين، فرآهم جميعاً[1].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

* * * * *

(١) ينظر المسند للإمام أحمد (١/ ٢٧١ و٤٠١ و٤٢٠) وصحيح البخاري في كتاب الطب (٥٧٠٥) ومسلم في كتاب الإيمان (٢٢٠) عن سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.

❖ المحاضرة السادسة:

* الحكمة ـ السنة النبوية ـ الحديث القدسي.

* عصمته ﷺ عن الخطأ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فهو صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عليهم آيات الله تعالى، فعندما يقرؤها عليهم يُسمعهم كلام الله تعالى كما أنزله الله سبحانه وتعالى.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾.

فهم يسمعون كلام الله بواسطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أي: يسمعون عين كلام الله، لكن بواسطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومعنى: ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي: طلب منك الجوار والأمان ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأعطه ذلك حتى تقرأ عليه كلام الله وتُسمعه إياه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أي: ردّه إلى قومه إنْ لم يُسْلِمْ.

فقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: يُفهمهم معناه، كما قال جلّ وعلا: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. فكان عليه الصلاة والسلام يعلّمهم الكتاب نصاً ومعنى.

والحكمة: هي السنة النبوية بما تشتمل عليه من: أقواله وأفعاله صلى الله عليه وآله وسلم. ولقد سمّاها الله تعالى **الحكمة** لأنها الحق والصواب.

والحكمة في اللغة هي: القول السديد، والعمل الصائب، أو: وضع الشيء في موضعه.

وإنّ أفعاله وأقواله صلى الله عليه وآله وسلم كلها سديدة، وكلها في مواضعها، ولذلك كانت عين الحكمة، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: السنة.

وقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] أي: السنة النبوية.

وفي هذا دليل على أنّ السنة النبوية والحديث النبوي مُنزلان من عند الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فالله تعالى أنزل هذا القرآن على طريق خاص وعلى وجه معجز، كما قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فالوحي القرآني كان يتنزل

باللفظ بواسطة جبريل عليه السلام فقط، أما بعض خصائص القرآن وأسراره فكان ينزل بها جبريل وغيره عليهم الصلاة والسلام.

وكذلك السنة النبوية فأحياناً كان ينزل بها جبريل عليه السلام، وأحياناً غيره من الملائكة، ولم تَبلغ حد الإعجاز، فأقواله وأفعاله عليه الصلاة والسلام هي بوحي من الله تعالى، لكن ليس عن طريق الوحي القرآني، ولم تبلغ حد الإعجاز، كما أنّ التوراة والإنجيل هي من عند الله تعالى لكنها لم تبلغ حد الإعجاز كالقرآن الكريم.

فالحديث النبوي معناه نازل من عند الله تعالى، ولفظه من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما الحديث القدسي فلفظه ومعناه نازل من عند الله تعالى، ولم يبلغ حد الإعجاز.

وأما القرآن الكريم فلفظه ومعناه من عند الله على وجه الإعجاز لفظاً ومعنىً.

وممّا يدل على أن الحديث النبوي نازل من عند الله تعالى من حيث المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ فليس المراد بهذا المنطق خصوص القرآن، فلو كان المراد منه القرآن خاصة لقال: وما يقرأ عن الهوى، لأنه يقال: قرأ القرآن، ولا يقال: نطق بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: لتنطقه على الناس. فهذا يدلّك على أنّ منطقه العام صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: حديثه ـ هو بوحي من الله تعالى.

ويؤكد هذا ما جاء في الحديث، عن عبد الله بن عمرو بن

العاص رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه ـ أي: من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا ـ ومرادهم أن غضبه صلى الله عليه وآله وسلم قد يُخرجه عن حدّ الاعتدال، وقد يخطئ ـ فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأومأ بأصبعه إلى فيه ـ أي: فمه الشريف ـ فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»[1]. وفي رواية[2]: «فقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق».

ومن هذا أيضاً ما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليدخلَنّ الجنة بشفاعة الرجل الواحد ليس بنبي مثل الحَيَّيْنِ ـ أو أحد الحيّين ـ ربيعة ومضر».

فقال قائل: إنما ربيعة من مضر.

فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أقول ما أقوّل»[3]. أي: هكذا يُقوّلني الله وينطقني، فأنا أقول ما يقوّلني الله تعالى.

وفي هذا بيان ودليل على أنّ أفعاله صلى الله عليه وآله وسلم هي بوحي من الله تعالى، وهي الحكمة، لأنّها مطابقة للواقع والحق، وهي السداد في القول والعمل. ومن هنا تعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يخطئ.

---

(١) كما في المسند (٢/١٦٢ و١٩٢) وسنن أبي داود كتاب العلم (٣٦٤٦).

(٢) في سنن الدارمي، في المقدمة ص (١٢٥).

(٣) كما في المسند (٥/٢٦٧).

أما قضية أسرى بدر فقد يُظن الخطأ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها.

ولكن الآيات لم تأت لا بصراحة ولا إشارة بأنه صلى الله عليه وآله وسلم أخطأ. وتفصيل المسألة:

إن المسلمين أسروا يوم بدر سبعين من المشركين، واختلفوا في أمرهم هل يقتلونهم أم يَقبلون منهم الفدية؟ كما جاء في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام استشار أصحابه رضي الله عنهم فقال: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى»؟

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قومك وأهلك اِسْتَبْقِهِمْ، واستأنِ بهم، لعل الله أن يتوب عليهم.

وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله أخرجوك وكذبوك؛ قَرِّبْهُمْ؛ فاضرب أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم ناراً.

فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يردّ عليهم شيئاً، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة رضي الله عنهم.

فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إن الله يُلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإنّ الله ليشدّ قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل

إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: رب ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

أنتم عالة ـ أي: بحاجة ـ فلا ينفلتنّ منهم أحد إلا بفداء أو ضربة عنق».

فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨].

فافهم هنا النقاط التالية:

١ ـ أنه عليه الصلاة والسلام عمل بما أمره الله تعالى بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٢ ـ مال إلى جهة الرحمة، لِمَا يُعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم خُلقَ للرحمة، وبعث رحمة.. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) كما في المسند (١/٣٨٣) ـ واللفظ له ـ وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير (١٧٦٣) مختصراً، والحاكم (٣/٢٢).

وقد فعل صلى الله عليه وآله وسلم ما هو رحمة بالمشركين يوم جاء ملك الجبال يوم الطائف وقال: «إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين».

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «بل أرجو أن يَخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»(1).

٣ـ رأى عليه الصلاة والسلام أن الأمر يقتضي الفداء كما قال تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ اللَّهُ﴾.

٤ـ جاءت الآيات القرآنية مقررة لما عمله عليه الصلاة والسلام، ولم يقل سبحانه: رُدَّ الفداء يا محمد واقتلهم، بل جاء التشريع وفقاً لما فعله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان هذا من موافقات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لشرع الله النازل، كما فعل عليه الصلاة والسلام عندما راح يُقلّب وجهه في السماء لعلّ الله يحوّل القبلة إلى الكعبة، فنزلت الآيات: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

وهنا كذلك، فكان رأيه صلى الله عليه وآله وسلم الفداء، وجاء التشريع مقرراً له بقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩] فلو كان فعله صلى الله عليه وآله وسلم خطأً لما أقرّه الله تعالى عليه، ولو كان باطلاً ما وافقه الله تعالى على الباطل، ولو كان ذنباً لأمره

---

(1) الحديث في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق، باب /٧/ (٣٢٣١) وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير (١٧٩٥) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

بالاستغفار من هذا الذنب. والحال أنك لا ترى في الآية تخطئة ولا ذنباً، ولو كان خطأً لأمره الله تعالى أن يَردّ الفداء، ولَمَا أقرّه الله تعالى.

فقد كان فعله صلى الله عليه وآله وسلم موافقاً للشرع المحمّدي النازل عليه، وموافقاً لقضاء الله السابق ـ فإنّ الله تعالى قضى في سابق الأزل أن الغنائم حلال لهذه الأمة المحمدية ـ قال جلّ وعلا: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ﴾ فوافق عمله صلى الله عليه وآله وسلم قضاء الله السابق، ووافق شرعه المحمدي اللاحق الذي سينزل، وإنْ كان خالف الشرائع السابقة حيث إنه كانت لا تحلّ لهم الغنائم، وهذا لأنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يؤمر باتّباع الشرائع قبله.

وانظر إلى الآية إذ ليس فيها توجيهات خطابية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ ولم يقل: تريد، وهذا تعريض بأولئك الذين رغبوا بالفداء والغنائم حُباً في عَرَض الدنيا، وفي هذا تعظيم من الله لمقام رسوله عليه الصلاة والسلام.

فلا يجوز أن يقال: أخطأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ لم تأت رائحة التخطئة في الآيات الكريمة، ولا رائحة الذنب.

علماً أن الخطاب جاء في غاية التعظيم: ﴿تُرِيدُونَ﴾.

ولو كان خطأً لَمَا أقرّه سبحانه بل أمره بالردّ، والحال أن الله تعالى قال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾.

ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري وغيره(١)، عن ابن عباس

---

(١) ينظر المسند (١/٢٢٢) وصحيح البخاري كتاب العلم (١١٤)، ومسلم آخر كتاب الوصية (١٦٣٧).

رضي الله عنهما قال: لما حُضِرِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «هلمّ أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده».

فقال عمر رضي الله عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غَلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قَرِّبُوا يكتبْ لكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر رضي الله عنه، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال عليه الصلاة والسلام: «قوموا».

وفي رواية[1] قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع» فخرجوا ولم يكتب لهم كتاباً.

فافهم هنا ما يلي:

١ـ لقد أدرك سيدنا عمر رضي الله عنه وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكتاب الله تعالى، ولذلك رأى أن الأمر لا يقتضي أن يُزعجوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يكلّفوه ما يشقّ عليه بسبب مرضه صلى الله عليه وآله وسلم، وعندهم كتاب الله إليه المرجع والتناهي.

٢ـ إن الأمر والخير هو ما قاله عمر رضي الله عنه، ولو لم يكن كذلك لما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكتاب، بل أصرّ على كتابته، وفي هذا إشارة منه صلى الله عليه وآله وسلم إلى

(١) عند الإمام البخاري في كتاب العلم، باب كتابة العلم (١١٤).

التمسك بكتاب الله تعالى والرجوع إليه، كما أوصاهم بذلك صلى الله عليه وآله وسلم في كثير من الأحاديث، منها الحديث الذي رواه الإمام مسلم وغيره[1]، عن سيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً خطيباً فينا بماءٍ يُدعى خُمَّاً بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ووعظ وذكّر ثم قال: «ألا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب».

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما أنا بشر» يريد بذلك أنه يعتريه الموت كسائر البشر، وإلا فهو صلى الله عليه وآله وسلم بشر لا كالأبشار.

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦].

وكما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»[2].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يوشك أن يأتيني رسول ربي» يعني: جبريل عليه السلام بالتخيير، أو ملك الموت بالوفاة، وكلاهما واقع إذ أرسل الله تعالى إليه جبريل فخيّره بين الدنيا وبين ما عند الله: فاختار ما عند الله ـ كما سبق الحديث[3] ـ ثم بَعد ذلك جاء ملك الموت بالوفاة.

---

(١) الحديث في المسند للإمام أحمد (٣٦٧/٤) وصحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة (٢٤٠٨).

(٢) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال (١٩٦٥) ومسلم في كتاب الصوم (١١٠٣).

(٣) ص (٥١).

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله تعالى: فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغّب فيه ثم قال: «وأهل بيتي، أُذَكِّرُكُمُ الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»[1].

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثِقلَيْن» أي: أمرين عظيمين في أداء حقوقهما، لأن الأمر الثقيل يحتاج إلى قوة ونشاط لحمله وأداء حقّه. فعبّر عن كتاب الله بذلك لأنّ أمره عظيم، وأداء حقّه يحتاج إلى عزيمة ونشاط.

ويقال عن الإنس والجن: إنهما ثَقَلان، لثقلهما على الأرض.

ويقال: هذا أمر ثقيل أي: في تكليفه ومعانيه.. كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] أي: أمراً عظيماً في معناه.

أما الكتاب الذي أراد كتابته صلى الله عليه وآله وسلم قُبيل وفاته فهو ـ كما قال العلماء رضي الله عنهم ـ هو كتاب خاص بخلافة الصديق رضي الله عنه، كما بيّنته رواية الإمام مسلم[2]، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه: «ادعي لي أباك أبا بكر وأخاك، حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمنٍّ، ويقول قائل: أنا أولى ـ أي: بالخلافة ـ ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».

---

(١) المسند (٤/٣٦٧)، وصحيح مسلم (٢٤٠٨).

(٢) في كتاب فضائل الصحابة (٢٣٨٧).

فأراد عليه الصلاة والسلام أن يكتب لهم كتاباً ينصّ فيه بخلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إلا أنه صلى الله عليه وآله وسلم عدل عن الكتاب وقال: «ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر» أي: لا مُوجب لكتابة الكتاب، لأن الخلافة لا تكون إلا لأبي بكر رضي الله عنه. لأن الله تعالى لا يَرضى والمؤمنون لا يرضون إلا أن يكون الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر رضي الله عنه.

فعرف صلى الله عليه وآله وسلم أن هذا الأمر سيكون فعدل عن كتابة الكتاب إذ لا حاجة مُلزمة لكتابه.

ويدلّ هذا على أن خلافة أبي بكر رضي الله عنه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي برضا الله تعالى ورضا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ورضا المؤمنين من أهل السماء والأرض.

وقد فهم سيدنا عمر رضي الله عنه وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتمسك بكتاب الله تعالى، حتى إن خلافة الصديق هي من كتاب الله مفهومة، إذ لمّا اتفقت كلمة المهاجرين على أنه هو الخليفة، فهناك قُرئَت الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: المهاجرون.

وقد أجمعت كلمتهم على أن الخليفة هو أبو بكر رضي الله عنه، فكانت خلافته بشهادة القرآن الكريم.

*****

النور القرآني ـ النور المحمدي

إنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ هو كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

فمعنى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: وجدك غير عالم بتفاصيل الشريعة، وأحكام النبوة والرسالة، فهداك هَدياً خاصاً، وليس المراد هنا من الضلال ضلال الكفر أو الفسق، بدليل قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾. فهو صلى الله عليه وآله وسلم لم يرتكب إثماً ولا ذنباً حتى في شبابه.

فالضلال في الآية هو الضلال اللغوي، كمن ضلّ في طريقه ـ أي: صار لا يعرف الطريق ـ.

والمعنى: وجدك غير عالم بتفاصيل الشريعة والأحكام، فهداك إليها وعلّمك إياها، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾ [النساء: ١١٣] وقال سبحانه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: ما كنت تدري تفاصيل الكتاب والإيمان وأحكامهما

قبل أن نُعلمك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهداك إليها وعلمك إياها سبحانه وتعالى.

واعلم أن نظير هذا قوله تعالى على لسان موسى عليه الصلاة والسلام لما قَتَل القبطي: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠-٢١] فلم يُرِد موسى عليه السلام حين قتل القبطي أن يقول: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: الفاسقين أو الكافرين، لأن موسى عليه السلام كان مؤمناً، ولم يحمله على قتل القبطي إلا إيمانه وانتصاره للمؤمن الذي استغاث به.

فمراده من قوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: لم أنبأ ولم أُرسل، بدليل تمام الآية: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ فالمراد: ما كنت تدري مِنْ نفسك ومن ذاتك، بل إنّ الله تعالى هو الذي علّمك، فصار صلى الله عليه وآله وسلم عالماً دارياً.

واعلم أن الدراية تُطلق على العلم بتفاصيل الأمور، أما العلم فيطلق على الأمور الإجمالية والتفصيلية، ولم يقل جل وعلا: ما كنت تعلم، والمعنى: ما كنت تدري تفاصيل الكتاب والإيمان حتى علمناك إيّاها، فصار لك دراية بها. كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] فتفاصيل الكتاب هي علومه وأحكامه.

والإيمان المراد في الآية هو: الإيمان العملي بشعبه، فإن الإيمان كثيراً ما يطلق ويراد به: الشعب العملية، فيطلق على الصلاة... وإن

الإيمان هو بضع وسبعون شعبة، كما ورد في الحديث[1]: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إلّه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» ومعنى أدناها: أقلها منزلة. فقد يطلق على أحد تلك الشعب الإيمانية إيماناً. كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ ـ أي: صلاتكم ـ وهم الصحابة الذين ماتوا وكانوا يصلّون إلى بيت المقدس قبل أن تُحوّل القبلة إلى الكعبة. فسمّى الصلاة إيماناً لأنها من شعبه وتفاصيله.

وهنا يتضح لك قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: تفاصيل الكتاب والإيمان العملية، من: صلاة وحجّ وزكاة؛ حتى علّمك الله إياها، فصرت دارياً وعالماً بها، وإلا فهو صلى الله عليه وآله وسلم نشأ منذ صغره على الإيمان.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فهذا يدّل على أنّ هدي الله لعباده هو عن طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبواسطته.

ويرحم الله القائل:

وأنـت بـاب الله أيّ امـرئٍ ... وافـاه مـن غـيرك لا يـدخل

ومعنى وافاه: أي وافى الحق وأراد الدخول عليه.

ثم ما هو هذا الصراط المستقيم الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعا إليه؟ قال تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) في صحيح البخاري كتاب الإيمان (٩) وصحيح مسلم ـ واللفظ له ـ (٣٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

فدلّ هذا على أن طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الطريق الموصل إلى الله تعالى، فإذا سلكته مقتدياً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجعلت هذا الإمام أَمَامَك وصلت إلى الله تعالى، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾.

والذي يهديك السبيل أو الطريق يَمشي أمامك لا وراءك، فأول سالك على هذا الصراط هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والمؤمنون كلهم مقتدون ومؤتمّون بهذا الإمام الأعظم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ أي: طريقي ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ فهو صلى الله عليه وآله وسلم لمّا قاد الخلق وأَمَّهُمْ على الصراط لم يَجعل النور من بين يديه فقط، وإلا أظلم الأمر على المقتدين وراءه، بل جُعِل النور في سمعه وبصره وقلبه ويديه صلى الله عليه وآله وسلم، بل حفّه من فوقه ومن تحته، ومن أمامه ومن خلفه، وعن يمينه وعن يساره صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يدعو في سجوده: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً»[1].

---

(١) صحيح البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل (٦٣١٦)، وصحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٧٦٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

فمعنى الآية: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: لا أدعو إلى نفسي ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ فبأي نور استضاء من اتّبعه؟ نعم بالنور الذي من خَلْفه عليه الصلاة والسلام، لأنه قال: «ومن خلفي نوراً»، فترك صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ خلفه نوراً لأتباعه، فصار هو صلى الله عليه وآله وسلم يمشي على نور، وأتباعه يمشون على نوره صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا هو نور القرآن وبيانه من: الحديث والسنة النبويّة التي تركها صلى الله عليه وآله وسلم لأتباعه.

قال تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

فجميع الأمور صائرة إلى الله تعالى حالاً ومآلاً، ولكن فَرَض علينا طريقاً شرعياً وجب أن نسلكه فقط، أمّا جميع الطرق التي مشى عليها الخلائق فتنتهي إلى الله، وحسابها عند الله، فمن سلك طريق الله وهو طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو حَسَنُ الرجوع إلى الله تعالى، ويلقى رباً غير غضبان. وأمّا من سلك غير طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فينتهي أمره إلى الله، ولكن يَلقى ربه وهو غضبان.

وإنّ النور الذي تركه صلى الله عليه وآله وسلم ليستضيء به أتباعه إنما هو القرآن العظيم، وبيانه من الحديث الشريف، كما قال عليه الصلاة والسلام: «وإني تارك فيكم ثِقَلَيْن أولهما كتاب الله عز وجل فيه الهدى والنور»[1] فدل هذا على أَنّ الهدى والنور كلّه في

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٣٣).

كتاب الله، وَمَنْ لم يستهدِ بكتاب الله فلا نور له، ولا هدي عنده.

وهذا كما قال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ الآية، وهذا النور هو القرآن الكريم.

وقال جلّ وعلا: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فلا يمكن للإنسان أن يستنير بنفسه، إلا إذا أقبل على القرآن متفهّماً له كما بيّنه صلى الله عليه وآله وسلم، والقلب الذي لم تتوقّد فتيلته بسراج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا نور فيه، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم هو السراج المنير، وعنه يؤخذ النور، وإنّ الذي أوقد سراجه صلى الله عليه وآله وسلم وأناره هو الله تعالى، فالنور الإلٰهي يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعنه تتوزع الأنوار، ويأخذ كل مستعدّ حسب استعداده، وكذلك فإنه صلى الله عليه وآله وسلم هو المجْلَى الأعظم والمنزل الأول، والحضرة الأولى في كل العوالم صلى الله عليه وآله وسلم.

*** ومن خصائصه وفضائله عليه الصلاة والسلام:**

أَنّ الله تعالى رفعه على غيره من الأنبياء درجات في العلم، فلقد نال صلى الله عليه وآله وسلم من العلوم ما لم ينله الأنبياء كلهم، ومن جملة ذلك: أن الله تعالى قال في آدم عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وقال عزّ وجلّ في عيسى عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

وقال جلّ وعلا على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

فلقد ذكر سبحانه وتعالى ما خصّ به كل نبيّ من العلوم، أمّا عن رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد قال سبحانه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

فقوله جلّ وعلا: ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ شمل جميع علوم النبيين قبله، وزاد عليهم بما يليق بمقامه صلى الله عليه وآله وسلم.

ويشهد لهذا ما جاء في الحديث الذي رواه الإمام الترمذي، وسئل عنه الإمام البخاري فقال: صحيح. عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «احتبس عنّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات غداة عن صلاة الصبح؛ حتى كدنا نتراءى عين الشمس، فخرج سريعاً، فثُوِّب بالصلاة، فصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتجوّز في صلاته ـ أي: أسرع لضيق الوقت ـ فلمّا سلم دعا بصوته فقال لنا: «على مصافّكم، كما أنتم» ثم انفتل إلينا ثم قال: «أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة: إني قمت من الليل فتوضأت وصليت ما قدّر لي، فنعست في صلاتي فاستثقلت، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال: يا محمد. قلت: لبيك رب. قال: فِيْمَ يختصم الملأ الأعلى[1]؟ قلت: لا أدري ربّ» قالها ثلاثاً.

---

(١) اختصام الملأ الأعلى من الملائكة عليهم السلام ليس خصومة عداوة، وإنما اختصامهم هو اختلافهم في الأقوال وهكذا، لأن كلاً منهم مأمور بمهمته، وكلّ منهم يَحمل أسماء إلٓهية، ولابدّ لهذا الاسم أن يظهر أثره=

قال: «فرأيته وضع كفّه[1] بين كتفيّ، حتى وجدت برد أنامله بين ثدييّ، فتجلّى لي كل شيء وعرفت» ـ وفي رواية لبعض العارفين: «فتجلّى لي علم الأولين والآخرين» أي: أن جميع العلوم استفاضت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وظهرت له بالكشف والمعرفة، بما في ذلك علوم النبيين والملائكة والملأ الأعلى.

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «تجلّى لي كل شيء وعرفت» يدلّ على أنه صلى الله عليه وآله وسلم نال العلم عن طريقين: طريق المعرفة، وطريق التجلّي ـ أي: بالشهود والكشف ـ .

فقال الله تعالى: «يا محمد. قلت: لبيك ربّ.

قال: فيم يختصم الملأ الأعلى»؟ ـ أي: كنْتَ غيرَ عالم، والآن أَفَضْنا عليك عِلْمَ الأولين والآخرين.

«قلت: في الكفارات. قال: ما هن؟ قلت: مَشي الأقدام إلى الجماعات ـ وفي رواية: «الجمعات» ـ وإسباغ الوضوء في المكروهات، والجلوس في المساجد بعد الصلاة».

= على حامله، فهناك اسم (الرحيم) الذي يقتضي الرحمة، وهناك اسم (المنتقم) الذي يقتضي الانتقام.. وهكذا، وكل اسم يطلب التنفيذ، فيحصل الخصام فيما بينهم حتى يحكم الله بينهم.

(١) ليس لله تعالى كفّ جارحية، ألا ترى أن العرب تقول: فلان له يد عندنا ـ أي: له نعمة عندنا ـ ومنه الحديث: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافيه الله بها يوم القيامة» رواه الترمذي. وقد جاء القرآن الكريم والحديث الشريف بلسان العرب، فلا تفهم من اليد: اليد الجارحية، وليكن فهمك في ذلك فهماً يوافق منهج اللغة العربية. فقد تطلق اليد على: النعمة.

قال: ثم فيم؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام.

قال سبحانه: سل ـ أي: ادع لأنك في مقام القرب ـ.

قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحُبَّ المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة قوم فتوفني غير مفتون، أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقرّب إلى حبك».

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «إنها حقّ، فادرسوها ثم تعلّموها»[(١)].

وجاء في الحديث[(٢)] أنه صلى الله عليه وآله وسلم قام مقاماً على المنبر وقال للصحابة: «من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل، فلا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به مادمت في مقامي هذا».

وفي مسند[(٣)] الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً كالمودّع فقال: «أنا محمّد النبي الأمّي» ثلاثاً، «ولا نبي بعدي، أُوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، وَعُلِّمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتُجُوِّزَ بي، وعوفيتُ وعُوفِيَتْ أمتي، فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم، فإذا ذُهِب بي فعليكم بكتاب الله أحلّوا حلاله وحرّموا حرامه».

واعلم أيها الإنسان أنّ دلائل الكلام على المعاني كثيرة جداً، وكلّ إنسان يَفهم معنى الكلام على حسبه، ولو تكلم إنسان في مجلس يضمّ رجالاً وشباباً وصبياناً لأخذ كلٌّ منهم حظّه من الفهم،

---

(١) تقدم تخريجه ص (٧٩).

(٢) عند البخاري (٥٤٠) ومسلم (٢٣٥٩) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٣) (١٧٢/٢ و٢١٢).

مع أنّ الكلام واحد وهو من كلام البشر. أما كلام ربّ العالمين فقد تضمّن معاني لا نهاية لها، وكل إنسان يفهم منه على حسب استعداده.

وقد أوتي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، فهو يفهم جميع مدلولات الكلام ومعانيه؛ لقوة استعداده صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أنّ الله تعالى أطلع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على المغيّبات قال سبحانه: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ـ٢٧].

فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليس له اطّلاع مِنْ ذاته على أمور الغيب؛ إلاّ إذا أطلعه الله تعالى وعلّمه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] أي: ما تدري من ذاتها إلا إذا أطلعها الله تعالى.

وقد أطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك، وأخبر به عليه الصلاة والسلام، فقال للأنصار رضي الله عنهم وهم أهل المدينة المنورة: «المَحْيا محياكم والممات مماتكم»[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن: «لعلك أن تمرّ بمسجدي وقبري»[2]، وكان صلى الله عليه وآله وسلم قد التفت بوجهه الشريف نحو المسجد.

---

(١) طرف من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/٥٣٨) ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة حرسها الله تعالى (١٧٨٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في المسند (٥/٢٣٥) وينظر مجمع الزوائد (١٠/٥٥).

وجاء في الحديث[1] أن إسرافيل عليه السلام جاء بفرس أبلق ـ أي: في لونه سواد وبياض ـ عليه قطيفة من سندس، مُحمّل بمقاليد الدنيا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهذا الفرس من عالم الغيب ـ.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض»[2].

ومما عَلّمه الله تعالى وخصّه به من العلوم، أَنْ علّمه عدد أهل الجنة وأسماءهم، وعدد أهل النار وأسماءهم:

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه كتابان فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان»؟

فقلنا: لا يا رسول الله إلا أن تخبرنا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً».

ثم قال للذي في شماله: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء

---

(١) عند الإمام أحمد في المسند (٣٢٨/٣) وعند ابن حبان /٦٣٣٠/ (٩٤/٨) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد (١٣٤٤) ومسلم في كتاب الفضائل (٢٢٩٦) عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه.

أهل النار، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً»[1].

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيديه فنبذهما ـ أي: نبذ الكتابين ـ فهذه الكتب نزلت عليه من الله تعالى مكتوبة بكتاب الله تعالى، ولذلك فقد وسعا جميع أسماء أهل الجنة وأهل النار. وليس هذان الكتابان من عالم الحس، بل هما من عالم الغيب، ولكنهما تمثّلا بصورة كتابين حسيين، ورآهما الصحابة بيدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهما مكتوبان بكتابة غيبية، ولذلك وسعا هذه الأسماء، ولا يمكن أَن تطّلع عليهما عين إلا عين نبي كريم، وَمَن خصّصه الله تعالى، ولذلك ما تجرأ أحد من الصحابة وتقدّم لينظر فيهما.

وَيُحكى أن امرأة من الصالحات رأت في منامها أَنّ القيامة قد قامت، وتطايرت الصحف، حتى وقعت صحيفتها في يمينها، وأنها من أهل الجنة، فاستيقظت وإذا يدها مقبوضة على ورقة، ولم تستطع بسط يدها، وأعيا الأطباء أمرها.

فذهبوا بها إلى أحد العارفين رضي الله تعالى عنهم، فَعلِم أَنّ هذا الأمر سرّ غيبيّ، واهتدى لحلّ هذه المشكلة من الحديث النبوي السابق، وعاهد المرأة أنه إذا دعا لها وبسط الله يدها أن لا تنظر في الورقة، وأن تبتلعها، فعاهدته، فبسط الله يدها وابتلعت الورقة.

وليس ابتلاعها للورقة يعني هضمها المعروف، ولكنّه ردّ للورقة

---

(١) الحديث في المسند (٢/١٦٧) وسنن الترمذي في كتاب القدر (٢١٤٢).

إلى عالم الباطن الغيبي، لأن هذه الورقة من عالم الغيب، وتمثّلت بصورة حسّية؛ فأعادتها إلى عالم الغيب بابتلاعها لها. فافهم.

وكان جماعة من الصالحين يطوفون حول الكعبة، فمرّ بهم رجل من أهل الجذب، وقد تعلق بأستار الكعبة عند الميزاب، فجعلوا يمازحونه وقالوا له: هل نَزَلت عليك براءة من الله تعالى بأنك من أهل الجنة؟

فأخذ الرجل هذا الكلام بعزم، وراح يدعو الله تعالى ويقول: اللهم أنزل عليّ البراءة. فنزلت ورقة على الميزاب ووصلت إليه، مكتوب فيها إنه من أهل الجنة فأخفاها.

واعلم أنّ هذه الأسرار الغيبية إذا أطلع الله عليها أحداً فيجب أن يكتمها.

ويرحم الله القائل:

مَنْ أطلعوه على سرّ فباح به لم يُطلعوه على الأسرار ما عاشا

ولقد نال صلى الله عليه وآله وسلم درجة عالية في حَقِّ اليقين.

قال سبحانه في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

أما الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فقد ارتقى بذاته وروحه وعاين ما هنالك ببصره وبصيرته ليلة الإسراء والمعراج.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ المحاضرة السابعة:

حول خُلقه الكريم
صلى الله عليه وآله وسلم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

قال الله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

أقسم سبحانه بأمرين عظيمين على أمر هو: عظمة أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم.

فأقسم جلّ وعلا بالمادة والمستمِدِّ، وبالجملة وتفصيلها، وبالحقيقة ومراتبها. ومعنى: ﴿نٓ﴾ في اللغة العربية: المِداد والدواة.

ولمّا قرن سبحانه ﴿نٓ﴾ بالقلم دَل على أن المراد من ﴿نٓ﴾ المدد الإلّهي الفياض على القلم الأول، الذي جاء ذكره في الحديث[1]:

---

(١) الذي رواه الترمذي في كتاب القَدَر (٢١٥٩) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

«إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، فقال: وما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد». فراح القلم يكتب تفاصيل المقادير والأحكام مستمداً من فيض الله ومدده عليه.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: ما تُسطره الملائكة من مقاديرَ وأحكام.

فهنا ترى أن الله سبحانه أقسم بأمرين عظيمين:

أولهما: الأمر الإمدادي الإجمالي الأصلي.

وثانيهما: الأمر التفصيلي.

فأقسم سبحانه على فضائل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن نزّهه عن شوائب النقصان، وشوائب الجنون، ثم أثبت له الأمور الإيمانية الكاملة، وهي الأخلاق العظيمة ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ﴾ أي: ليس فيك يا محمد شيء أو شائبة من الجنون الذي يتهمك به أعداؤك، فقد اتهموك بذلك لَمّا سمعوا ما أنذرتهم به من أمور الآخرة، والبعث والحشر بعد الموت، واتّهموا مَنْ بيّن لهم أن الله تعالى قادر على إعادة العظام والرّفات بعد تفرقّها؛ اتهموه بالجنون.

كما أنهم اتّهموه صلى الله عليه وآله وسلم بالجنون لمّا رأوه يستمع لكل إنسان يأتي إليه ولا يردّ أحداً، وما هذا إلا مِنْ عظيم خُلُقه صلى الله عليه وآله وسلم، وسَعَةِ حلمه.

قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ﴾ [التوبة: ٦١] أي: يسمع لكل مَنْ حدّثه، والحال أنه صلى الله عليه وآله وسلم يسمع من كل أحد، لكنه لا يقبل الخبر من كل أحد. فقال عنه الكافرون والمنافقون: إنه مجنون. وما هذا إلا لأنه صلى الله عليه وآله وسلم يَفعل أموراً لم تتفق مع نقصان عقولهم.

ولو سألت المجنون: أأنت المجنون أم هؤلاء الناس؟

لقال: أنا العاقل، وهؤلاء المجانين.

فلولا أن يكونوا هم مجانين لما قالوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنه مجنون.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ أي: وإنّ لك على ما تتحمّله من هذا الكلام وإيذائهم الحسّي والقوليّ والمعنويّ.

﴿لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فأنت صاحب الخلق العظيم، فما قابَلْتَ أحداً بما يكره، ولا رددت إنساناً أو عبست في وجهه، وما هذا إلا لعظيم خُلُقِكَ.

فالخُلُق العظيم ضُرِبَ عليه صَرْحٌ عال، وقد علا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صرح الخُلُق وارتقاه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وفي هذا إشارة إلى العلوّ والرفعة، وإنّ مَنْ علا صرح الخلق وارتقاه فمنه تُستمد الأخلاق، وعنه تُعرف الأخلاق؛ ومَنْ أراد ذلك فليأت صرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليستمدّ منه، ولذلك أقسم سبحانه بـ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ ليشير إلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو مَدَد العالم، والله تعالى هو مُمدّه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا قاسم والله عزّ وجلّ يعطي» الحديث[1].

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب العلم (٧١) ومسلم في كتاب الزكاة (١٠٣٨) عن سيدنا معاوية رضي الله عنه.

ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم عظيماً في كل ناحية من نواحي أخلاقه الكريمة: فهو صلى الله عليه وآله وسلم عظيم في تواضعه، عظيم في حيائه، عظيم في شجاعته [وانظر تفصيل ذلك في كتاب «سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» للشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه].

ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[(١)]، وفي رواية[(٢)]: «صالح الأخلاق».

والمعنى: لقد جاء كل رسول بأخلاق صالحة كريمة، ولمّا بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء بأصلح الأخلاق وأتمّها، فنهض بالأخلاق من الصالح إلى الأصلح، ومن الكريم إلى الأكرم، ومن التامّ إلى الأتمّ والأكمل.

فما الأخلاق إلا كالإنسان، والإنسان له أعضاء، فاليد جاء بها رسول، والصدر جاء به رسول آخر، وهكذا... إلى أن بُعِثَ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجاء برأس الأخلاق وتاجها وأوجها وكمالها، ولهذا قالت السيدة عائشة رضي الله عنها لما سُئلت عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقالت: «كان خلقه القرآن»[(٣)]، ثم قالت للسائل: أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل:

---

(١) رواه البزار كما في مجمع الزوائد (٩/١٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسند الإمام أحمد (٢/٣٨١) والمستدرك للحاكم (٢/٦١٣) والبيهقي في الشعب (٧٩٧٨) أيضاً عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٦/٩١) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين باب جامع صلاة الليل (٧٤٦)، وغيرهما.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؟ وهذا لأنها رضي الله عنها لا يُمكن أن تُحصيَ أخلاقه الكريمة وتستقصيها، فلفتت بالجواب إلى القرآن الكريم فقالت ـ كما في الرواية الأخرى ـ: «كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه»[1].

فقد تحقّق صلى الله عليه وآله وسلم بجميع ما جاء به القرآن الكريم حتى صار صورة قرآنية، بحيث إذا نظرت فيه وفي أخلاقه الكريمة صلى الله عليه وآله وسلم وجدت معاني القرآن الكريم ومقاصده منطوية فيه صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا قال الله جلّ وعلا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: قدوة حسنة ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وإنّ من أخلاقه الكريمة وسَعَةِ رحمته ورأفته صلى الله عليه وآله وسلم: ما أخرجه الطبراني[2]، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتى صاحب بَزٍّ فاشترى منه قميصاً بأربعة دراهم، فخرج وهو عليه، فإذا رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله اكسني قميصاً كساك الله من ثياب الجنة.

فنزع القميص فكساه إيّاه، ثم رجع إلى صاحب الحانوت فاشترى منه قميصاً بأربعة دراهم، وبقي معه درهمان، فإذا هو بجارية ـ أي: أمة ـ في الطريق تبكي، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما يُبكيكِ»؟

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن المنذر، والبيهقي في الدلائل (١/٣٠٩).
(٢) كما في مجمع الزوائد (٩/١٣).

فقالت: يا رسول الله دفع إليّ أهلي درهمين أشتري بهما دقيقاً فهلكا ـ أي: ضاعا ـ فدفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليها الدرهمين الباقيين، ثم ولّت وهي تبكي فدعاها فقال: «ما يبكيك وقد أخذت الدرهمين»؟

قالت: أخاف أن يضربوني ـ أي: إن هم علموا أن الدرهمين ضاعا منها، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطاها غيرهما ـ

فمشى معها صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهلها فسلّم، فعرفوا صوته صلى الله عليه وآله وسلم، ثم عاد فسلّم، ثم عاد فثلّث ـ وهذا هو الحكم الشرعي في الاستئذان ـ فردّوا.

فقال: «أسَمِعْتُمْ أول السلام»؟ قالوا: نعم. ولكن أحببنا أن تزيدنا من السلام، فما أشخصك ـ أي: ما أحضرك إلينا ـ بأبينا وأُمِّنا؟.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَشْفَقَتْ هذه الجارية أن تضربوها».

قال صاحبها: هي حرّة لوجه الله لمَمْشَاكَ معها.

فبشرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخير والجنة.

وقال: «لقد بارك الله في العشرة، كسا الله نبيه قميصاً، ورجلاً من الأنصار قميصاً، وأعتق منها رقبة، وأحمد الله هو الذي رزقنا هذا بقدرته».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أوتيت جوامع الكلم»[1].

فإن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلغ مبلغاً عالياً في الفصاحة والبلاغة، حتى لم يَبق فوقها إلا حدّ الإعجاز، وهذا هو

---

(١) شطر حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٢٥٠) ومسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

معنى جوامع الكلم التي خَصّ الله بها نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، دون غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أعطيت خمساً لم يُعْطهن أحد من الأنبياء قبلي»[١] وفي رواية[٢]: «فضلت على الأنبياء بستّ: أعطيت جوامع الكلم».

ومما يدل أيضاً على أن ذلك من خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم، ما جاء في الحديث[٣] عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أعطيت جوامع الكلم، واختصر لي الحديث اختصاراً».

وفي مسند[٤] الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً كالمودّع فقال: «أنا محمد النبي الأمّيّ.. ثلاثاً. ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خزنة النار، وحملة العرش، وتجوّز بي، وعوفِيْتُ وعوفيَتْ أمتي، فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم، فإذا ذُهِب بي فعليكم بكتاب الله: أحلّوا حلاله وحرّموا حرامه».

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في أول كتاب التيمم (٣٥) ومسلم أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١).

(٢) عند الإمام مسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣).

(٣) الذي رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٤٣٦).

(٤) (١٧٢/٢).

ومعنى: جوامع الكلام: الكلام الجامع. **والكلم**: جمع كلمة، فكل كلمة حوتِ كلمات، ودلّت على معاني كثيرة، وإنّ حصر هذه المعاني الغزيرة في نطاق كلمة واحدة، يدلّ على قوة علمية كبيرة أعطاها الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وخصّه بها دون غيره.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يَندب النّاس إلى جوامع الكلم في الدعاء والتسبيح والذكر:

فمن هذا ما جاء في الحديث(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أم المؤمنين السيدة جُوَيْرِيَة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج من عندها بُكرة حين صلّى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى ـ أي: وقت الضحوة الكبرى ـ وهي جالسة فقال: «مازِلْتِ على الحال التي فارقتك عليها»؟ أي: من التسبيح.

قالت: نعم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد قُلْتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات؛ لَوْ وُزِنَت بما قُلْتِ منذ اليوم لوزنتهنّ: سبحان الله وبحمده: عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته».

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً. قلنا: يا رسول الله دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً.

---

(١) الذي رواه الإمام أحمد في المسند (٤٢٩/٦) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة (٢٧٢٦) وأبو داود (١٥٠٣) وغيرهم.

فقال: «ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله ـ أي: الدعاء ـ تقول: اللهم إنَّا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيّك محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأنت المستعان، وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عُلِّمَ فواتح الخير وجوامعه ـ وفي رواية: وخواتمه ـ وإنا كنا لا ندري ما نقول في صلاتنا، حتى عَلَّمَنَا فقال: «قولوا: التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»[2].

وكانوا من قبل يقولون: السلام على الله قبل عباده، السلام على جبريل وميكائيل، السلام على فلان وفلان[3] ـ يعنون من الملائكة ـ فعلّمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الثناء الجامع على الله تعالى، وتحيات العبد للربّ جلّ وعلا.

*** ومن جوامع كلمه صلى الله عليه وآله وسلم في الوصايا:**

أنه لَمَّا كان خُلُق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القرآن، وإن من جملة ما جاء به القرآن الكريم الوصايا، والمواعظ والزواجر،

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (٣٥١٦).

(٢) كما في المسند (١/٤٠٨) وينظر في الصحيحين والسنن.

(٣) كما في صحيح البخاري كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة (٨٣١) ومسلم في كتاب الصلاة (٤٠٢).

والآداب الخاصة والعامة، لذلك جرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على منهج القرآن الكريم في الوصايا والوعظ والإرشاد بكلام جامع.

فمن جملة وصايا ربّ العالمين: أنه أوصى الآباء في الأبناء، وأوصى الأبناء في الآباء قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [لقمان: ١٤].

وقال عز وجل: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١].

ومن الوصايا القرآنية قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ومن وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجامعة: وصيته لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

ففي الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنكبي وقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[1]، وزاد في رواية[2]: «وعدّ نفسك في أهل القبور»، وفي رواية[3]: «واعدد نفسك في الموتى».

---

(١) كما في صحيح البخاري أول كتاب الرقاق (٦٤١٦).

(٢) في سنن الترمذي، كتاب الزهد (٢٣٣٤).

(٣) في المسند (٢/ ٢٤).

ومعنى: «كن في الدنيا كأنك غريب» أي: لا تطمئن إلى الدنيا، ولا تسكن إليها، ولا تتمكن فيها كأنك تنوي البقاء والخلود فيها، بل كن فيها كالغريب، فإنّ مِنْ شأن الغريب أن يكون همّه وعزمه أن يَصل إلى وطنه سالماً، وإنّ الوطن الأصلي للمؤمن هو الجنة، فمنها خرج عندما كان في صلب سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام.

فالعاقل يجب عليه أن يسعى إلى العودة إليها، ولا يرضى بغيرها وطناً له، ومن استوطن غيرها بقي في غيرها.

فمن استوطن الدنيا واطمأن إليها، نقله الله تعالى إلى حقيقة الدنيا التي هي: عناء وشقاء، فينتقل إلى جهنم.

واعلم أن حقيقة هبوط آدم عليه السلام وذريته من الجنة إنما هو سفر في عوالم الله تعالى، حتى ينظروا فيها، ويعتبروا، وَيَتَرَقَّوْا في درجاتهم ومقاماتهم، ويزدادوا علماً بالله تعالى، حتى إن آدم عليه السلام ازداد علماً بالله تعالى لَما أُهبط إلى الأرض، فأعطاه الله تعالى النبوة والرسالة.

وأما مَنِ انشغل فيها والتفت إلى ما فيها فقد اتخذ غير وطنه ورضي به، وفي هذا قال جَلَّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

واعلم أن مِن شأن الإنسان العاقل أَن يحن إلى وطنه الأصلي، ولا يَسكن ولا يطمئن إلا في وطنه الأصلي، ويشعر بالوحشة في غيره.

ويرحم الله القائل:

نَقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحبُّ إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وَحِنِيْنُه أبداً لأول منزل

ولله درّ القائل:

وحَيَّ على جناتِ عدنٍ فإنها منازلك الأولى وفيها المخيّم
ولكننا سَبيُ العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونُسلَّم

ونسأل الله تعالى العودة بسلام. آمين

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أو عابر سبيل» فيه ترقٍّ في المقام، والمراد: كن في الدنيا غريباً، بل أشد من الغريب، أي: كن عابر سبيل وهو المارّ في طريق.

فعلى المؤمن أن يتخذ الدنيا طريقاً إلى الآخرة، وإنما يأوي إليها ويأخذ منها ما يحتاج، كما يأوي المسافر إلى ظلّ شجرة ويستريح قليلاً، ليجدّد همّته ونشاطه على متابعة السفر والوصول إلى داره. فيقال عن هذا المسافر: إنه عابر سبيل، وإنما جلس في ظلّ الشجرة جلسة خفيفة قصيرة، ليستعيد قوته ونشاطه.

وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا: كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[١].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وعدّ نفسك في أهل القبور» فيه أيضاً ترقّ في الحال، أي: بل عدّ نفسك من أهل القبور.

---

(١) كما في المسند (١/٣٩١) واللفظ له، والترمذي في كتاب الزهد (٢٣٧٨) وغيرهما، عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وإنّ حال أهل القبور أَنهم تحت رحمة ربّ غفور، لا معصية لهم ولا مخالفة، بل إنهم مفتقرون دوماً إلى رحمة الله تعالى.

وليكن حال المؤمن كذلك، بأن يُطهّر نفسه من دواعي الفساد والمعاصي.

ومن وصاياه الكريمة صلى الله عليه وآله وسلم: وصيته لسيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، كما في الحديث[1] أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من يأخذ عنّي هؤلاء الكلمات فيعمل بهنّ، أو يُعلّم من يعمل بهنّ»؟ قال أبو هريرة رضي الله عنه: فقلت: أنا يا رسول الله.

فأخذ بيدي فعدّ خمساً وقال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحبّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تُكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب».

ومعنى: «اتق المحارم» أي: باعد بينك وبينها.

«وارض بما قسم الله لك» أي: مِنْ رزق أَوْ ولَد أو علم.

«وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً» فمن مقتضيات الإيمان الإحسان إلى الجار، ولا شك أَنّ أقرب الجوار إليك من المخلوقات إنّما هم الملائكة الموكلون بالإنسان، فليجتنب المؤمن إيذاء الملائكة، وذلك بأن لا يتكلم بكلام يُنَفّر الملائكة كالسبّ والشتم والفجور، ولا يَفْعل فعلاً لا يرضاه الله تعالى.

---

(١) الذي رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٣١٠) والترمذي في أول كتاب الزهد (٢٣٠٦).

«وأَحِبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً» أي: إن الإسلام يُطالب الإنسان أن يحب للناس ما يحب لنفسه.

«ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب» أي: إن كثرة الضحك تُميت القلب الجسماني الظاهر، وهذا أمر معروف ضرره على القلب، وتميت القلب الروحاني المودع في هذا القلب الجسماني الصنوبري، وهو السرّ الإلٓهي المودع في القلب الجسماني، كالنور المودع في العين الظاهرة، وبه ترى العين الأشياء، وإن كثرة الضحك تُوجب قسوة القلب، وإذا قسا القلب صار كالصخرة الصمّاء، فلا تدخل إليه المعاني الإلٓهية، ولا تؤثر فيه المواعظ القرآنية والنبوية الموجبة للخشوع، فيقال عندئذ عن هذا القلب: إنه ميت.

ومن وصاياه الكريمة صلى الله عليه وآله وسلم: وصيته لسيدنا أبي ذر رضي الله عنه ـ وفي رواية لسيدنا معاذ رضي الله عنه ـ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اتق الله حيثما كنت، وأَتْبِعَ السيئة الحسنة تمحها، وخَالِقِ الناس بخلق حسن»[1].

فلقد اشتملت هذه الوصية على ثلاث جمل:

أولها : تتعلق بين العبد وربّه.

وثانيها : بين العبد ونفسه.

وثالثها : بين العبد وبين الناس.

---

(١) كما في المسند (٥/١٥٣و١٥٨ و٢٣٦) وسنن الترمذي في كتاب البر والصلة (١٩٨٨).

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتق الله حيثما كنت» فيه تأسٍّ منه صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن الكريم، وتخلّق به لأنّ خُلُقه القرآن الكريم، ولقد جاء في القرآن الكريم قوله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: وأنتم ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

وجاء في الحديث أن سيدَنا أبا ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة».

قال: قلت: يا رسول الله أمِنَ الحسنات لا إلٓه إلا الله؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هي أفضل الحسنات»[1].

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتق الله حيثما كنت» أي: لا يمكن للعبد هذا إلا بمراقبة الله تعالى، وعدم الغفلة عنه، فليراقب العبد قُرْبَ ربه منه؛ القرب اللائق به سبحانه، وليراقب مراقبة الله تعالى له في السرّ والجهر، فإذا لاحظ هذا حصلت له التقوى، وفي هذا قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

فبيّن سبحانه السبب الذي يحمل على تقوى الله وهو: أن يراقب العبد أن الله تعالى رقيب عليه، وَمَنْ عصى الله تعالى فقد غفل عنه، وَمَنْ كان على تقوى الله دائماً فهو على مراقبة لله تعالى دائماً.

ومن هذا وصية بعضهم رضي الله عنه: (إذا أردت أن تعصي الله فاعصه حيث لا يراك).

---

(١) كما في المسند (١٦٩/٥).

ولقد أراد بعض الأعراب أن يعتدي على أعرابية فقال لها: تَعَالَيْ فما يرانا أحد إلا هذه الكواكب.

فقالت له: وأين المكوكِب[1]؟ وهو الله سبحانه.

وقال الشيخ أبو يزيد رضي الله عنه[2]: كنت مرة وحدي، فجلست ومددت رجلي فسمعت هاتفاً: هَذا أدب من يجالس الملوك؟!

قال: فما مددتها بعد أبداً.

وكتب ابن السمّاك لأخيه: (أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنه: نَجِيُّكَ في سريرتك، ورقيب عليك في علانيتك، وخَفِ الله بقَدْر قربه منك، وعلى قدر قدرته عليك، واجعل الله تعالى في بالك في كل أحوالك).

ولقد تحقق سيدنا معاذ رضي الله عنه بوصية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له، ولهذا لمّا أرسله سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في بعض الأعمال فراح ورجع، وقد كانت زوجته قد طَلَبت منه بعض الأشياء فسألته فقال: ما تَمكنتُ أن آتي بما تَطْلبين.

قالت: ولِمَ؟ قال: عليّ رقيب.

فظنّت أن عمر رضي الله عنه قد جعل عليه رقيباً، فجعلت تشكو عمر وتقول: ما بال عمر يبعث زوجي الأمين ويجعل عليه رقيباً[3]؟!!.

---

(١) كما في جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب الحنبلي.

(٢) نادرة زمانه ورعاً وعلماً وزهداً طيفور بن عيسى البسطامي المتوفى سنة (٢٦١هـ) عن ثلاث وسبعين سنة رحمه الله تعالى.

(٣) ينظر جامع العلوم والحكم عند شرح هذا الحديث، وعزاه في كنز العمال (١٣/٥٨٤) إلى الحافظ عبد الرزاق، والمحاملي في أماليه.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وأَتْبِـعِ السيئة الحسنة تمحها» أي: إذا وقعت في ذنب فأتبعه بحسنة، فإن الحسنة تمحو السيئة، ويكفّرها الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إنّي عالجت امرأة بأقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أَنْ أمسّها ـ أي: إنه قبّلها ولم يقع فيها ـ وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت.

قال: فلم يردّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً.

فقام الرجل فانطلق، فأتبعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً دعاه، وتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

فقال رجل من القوم: يا نبي الله هذا له خاصة؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «بل للنّاس كافة»[(١)].

فعلى مقدار قوة الحسنة يمحو الله بها السيئة.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وخالق الناس بخلق حسن» أي: ليكن خلقك مع الناس حسناً أي: هيئتك وكلامك وفعلك ومعاملتك.

* **ومن وصاياه العامة صلى الله عليه وآله وسلم**: ما جاء في

---

(١) كما في صحيح البخاري كتاب التفسير (٤٦٨٧)، وصحيح مسلم كتاب التوبة (٢٧٦٣)، وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن (٣١١٤).

الحديث[1]، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلّى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الفجر، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت لها الأعين، ووجلت منها القلوب.

قلنا ـ أو قالوا ـ: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودّع فأوصنا.

قال: «أوصيكم بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة؛ وإن كان عبداً حَبَشِيّاً، فإنه من يَعِش منكم يرى بعدي اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، و إن كل بدعة ضلالة».

وفي هذه الوصية تأسٍّ بالقرآن الكريم، إذ أوصى بالتقوى وأمر بالطاعة للأمير المؤمن، قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾.

ولقد أشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى المَخْلَصِ من الخلافات، ولاسيّما الخلافات في الدين فقال: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين» أي: الراشدين في أعمالهم وأقوالهم.

«المهديّين» أي: في علمهم. فهم راشدون غير غاوين، لأن الغواية ضدّ الرشاد، والهداية ضدّ الضّلال، كما قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢].

---

(١) الذي رواه الإمام أحمد في المسند (١٢٦/٤) وأبو داود في أول كتاب السنة (٤٦٠٧) والترمذي في كتاب العلم (٢٦٧٨) وابن ماجه في المقدمة حديث رقم (٤٢).

وهذا ما كان عليه الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم، ومن تحقّق بذلك مِنْ بعدهم مِمّن رشد في عمله وقوله، وكان مهدياً في عقيدته وعلمه.

وقد وصفهم صلى الله عليه وآله وسلم بهذين الوصفين ليشير إلى أنّ هذين الوصفين هما أعظم الأوصاف الجامعة للخير، ومن اتّصف بهما فله إرث من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال سبحانه فيه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

وفي هذا شهادة من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالهداية والرشاد، فمن كان من الخلفاء بَعده هادياً راشداً فهو وارث محمّدي يُتَّبَعُ.

وفي هذا بيان على أَنّ السُّنن التي سنّها الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم إنما هي سُنن يُستمسَك بها، ويُعمَل بها، وما التمسك بها والعمل بها إلا عمل بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديّين».

فما سَنَّهُ الصديق رضي الله عنه من جمع القرآن الكريم صار سنّة عامّة من الدين.

وما سَنّهُ الفاروق عمر رضي الله عنه من الاجتماع على صلاة التراويح بالوجه المعروف بصلاة عشرين ركعة صار أيضاً سنّة من الدين، حتى قال بعض الصحابة: يرحم الله عمرَ رضي الله عنه لقد نوّر مساجدنا.

ومن هذا ما سنّه سيدنا عثمان رضي الله عنه وهو الأذان الأول يوم الجمعة.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وإياكم ومحدثات الأمور» أي إياكم والأمور الحادثة.

«فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» أي: كل بدعة ليس لها أصل في الشريعة، وهذا معنى الابتداع، وهو: إحداث أمر جديد.. كما قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»[1] أي: وما كان منه فهو منه، ولم يقل: من أحدث في أمرنا هذا شيئاً، فلا يقال عن أمر: إنه بدعة إذا كان له أصل شرعي.

فَمِنْ هذا أَن صلاة المؤذن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عقب أذانه ليست بدعة، لأنَّ لها أصلاً شرعياً فيما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ»[2].

* **ومن وصاياه الجامعة صلى الله عليه وآله وسلم**: ما جاء في الحديث[3] عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به ـ أي: أجعله عِصْمَتي ـ.

---

(١) كما في المسند (٦/ ٢٤٠ و ٢٧٠) والبخاري في كتاب الصلح (٢٦٩٧) ومسلم في كتاب الأقضية (١٧١٨) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) كما في صحيح مسلم كتاب الصلاة (٣٨٤) وسنن أبي داود كتاب الصلاة (٥٢٧) والترمذي (٣٦١٦)، عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) الذي رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٤١٣) وهذا لفظه، ومسلم في كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام (٣٨) والترمذي في كتاب الزهد (٢٤١٢).

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: ربي الله؛ ثم استقم».

قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟

فأخذ صلى الله عليه وآله وسلم بلسان نفسه ثم قال: «هذا».

واعلم أنّ اللِّسَان ترجمان عن القلب والجَنان، ولَمّا كان جنانه صلى الله عليه وآله وسلم القرآن، كان كلامه حاوياً لمعاني القرآن الكريم، ودالاً عليه، ومشيراً إليه.

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: ربي الله؛ ثم استقم» فيه إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقوله عز وجل: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت: ٦].

وقوله جلّ وعلا: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] والطريقة هي: الصراط المستقيم، الذي قال فيه سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] وهو طريق الشرع الذي جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: ماء كثيراً، أي: لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولأنعمنا عليهم بالنعم الأرضية والسماوية، الحسية والمعنوية.

وإنّما ذكر سبحانه خصوص الماء لأن الماء أصل الحياة، يعني: أنهم لو استقاموا لأمدّهم الله تعالى بأنواع الحياة، وأنواع الأرزاق التي فيها قوتهم وحياتهم الحسيّة، ولعلّمهم سبحانه الأمور العلمية المكتسبة

الأرضية، ولعلّمهم الأمور اللدنّية السماوية، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

فقوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾ يشمل الأرزاق الظاهرة كمطر السماء واعتدال الأجواء، ولعلّمهم الله تعالى العلوم السماوية ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يشمل الزروع والأعشاب، ولعلّمهم العلوم المكتسبة الأرضية التي بها معاشهم ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنبتليهم فيه. وفي هذا بيان من الله تعالى أنه يبتلي بالحسنات والسيئات، والنعم والنقم، فيختبر سبحانه العباد بقلة المطر والرزق، فمنهم من يرجع إليه ويتضرع، ومنهم من يُعرض ويكفر.

ويختبرهم جلّ وعلا بالخيرات والأرزاق، فهناك من يشكره عليها، وهناك من يجحد النعم ويكفر.

قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقد يبتلي الله العبد بالذنب بمعنى: أنه يُسهّل عليه أسباب الوقوع فيه، ثم إنه إذا وقع فيه هل يتوب أم لا؟.

كما أنه سبحانه يبتلي ويختبر العبد بالحسنة، ويُسهّل عليه أمور الطاعات، حتى إذا كان العبد مطيعاً عابداً، هل أنه يعتمد على نفسه وأنانيته في ذلك، أم على فضل ربه؟.

وقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] أي:

استقيموا على ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ ولم يقل سبحانه: ولا تَطْغَ كما هو سياق الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لإظهار علو شأنه ورفعة مقامه صلى الله عليه وآله وسلم.

والطغيان هو: مجاوزة الحدّ والتعالي على الرتبة، يقال: طغى الماء إذا جاوز حدّه وعلا عن رتبته.

فقوله جلّ وعلا: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ أي: لا تتجاوزوا حدودكم ومراتبكم، فاعرفوا أنفسكم بأنكم عبيد لله تعالى، وكونوا عباداً له على الحقيقة.

* **ومن وصاياه صلى الله عليه وآله وسلم**: ما جاء في الحديث عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام ـ أي: طرق وأبواب الإسلام ـ قد كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشبث به.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى»[١].

وقد تخلّق صلى الله عليه وآله وسلم بأخلاق القرآن الكريم، لِذا كانت وصاياه الجامعة مستوحاة منه، وفي هذا يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ الآية [الأحزاب: ٤١].

ولقد أمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالإكثار من

---

(١) كما في المسند (٤/ ١٩٠) وسنن الترمذي في كتاب الدعوات (٣٣٧٢) وترتيب ابن حبان (٨١١) والمستدرك (١/ ٤٩٥).

ذكر الله تعالى، والذكر الكثير لا حدّ له، وهو أن يذكر العبد ربّه في جميع أحيانه، وبهذا وصفت السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الله تعالى على كل أحيانه)[1].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى» يدل على أن ذكر الله تعالى به ندى القلب وريحانه.

وقد يقول الإنسان : إذا أكثرتُ من الذكر جَفَّ ريقي.

فيقال له : لقد جفّ ريقك، لكن قلبك انتعش واستقى واطمأن.

والذكر قد يكون قولياً وعملياً ونفسياً معاً كالصلاة، وقد يكون باللسان والقلب كالتسبيح والتحميد، وتلاوة القرآن الكريم، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وسماع العلم، وقد يكون في النفس بمراقبة الله تعالى ـ أي: بمراقبة أن الله رقيب على العبد في جميع أحيانه ـ.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسير في طريق مكة، فمرّ على جبل يقال له: جُمدان، فقال: «سيروا هذا جمدان سبق المَفرِّدُونَ».

قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟

---

(١) كما في المسند (٦/ ٧٠ و٢٧٨) وصحيح مسلم في كتاب الحيض (٣٧٣) وسنن أبي داود (١٨) والترمذي في كتاب الدعوات (٣٣٨١).

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[1].

ولقد كانت رتبة جبل جمدان رتبة التفريد ـ أي: رتبة السابقين إلى ذكر الله تعالى والمكثرين من ذلك ـ وهذا لأن للجبال عند ربّها مراتب ومنازل، وليست هي على حدّ سواء، فهناك جبل أحد، وجبل ثور، وجبل الطور.

وإن أولياء الله تعالى جبال بشرية، ومن شأن الجبل أن يثبّت الأشياء حوله، فكان أولياء الله تعالى أعمدة الكائنات.

والمفَرِّدُون هم: الذين فرّدوا قلوبهم لله تعالى، فأكثروا ذكر الله تعالى، وأخلوها عن غيره سبحانه، لذا كانوا يذكرون الله على أحيانهم كلها.

واعلم أن الله تعالى يذكر عبده الذي يذكره على حسب حاله في الذكر، وعلى حسب الاسم الذي يذكره به سبحانه، كما في الحديث القدسي[2]: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

فَمَنْ ذكر الله تعالى باسم معيّن ذكره الله تعالى برتبة خاصة به، وَمَنْ ذكره بالاسم الجامع لكل الأسماء والحضرات، مع ملاحظة ذلك؛ ذكره الله تعالى بكلّ الكمالات اللائقة بالعبد.

---

(١) كما في المسند (٢/٤١١) وصحيح مسلم ـ واللفظ له ـ أول كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٧٦).

(٢) كما في المسند (٢/٢٥١) وصحيح البخاري كتاب التوحيد (٧٤٠٥) وصحيح مسلم، أول كتاب الذكر والدعاء (٢٦٧٥) ـ واللفظ لهما ـ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

واعلم أَنّ من أحبّ شيئاً أكثر من ذكره، فعلى مقدار حب العبد لربّه يكون ذكره له، ولهذا ذكر الله تعالى أَنّ المؤمنين إذا ذكروا الله وجلت قلوبهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ارتعدت وتهيّبت، واعترتها الخشية، لأن الله تعالى هو محبوبهم الأعظم، فلمّا ذُكِرَ حنّت قلوبهم ورقّت، واضطربت شوقاً إليه تعالى، وحبّاً فيه سبحانه.

والمخلوق إذا أحب مخلوقاً ثم ذُكِر أمامه وَجِل قلبه.. كما قال بعضهم:

وإني لتعـروني لـذكراك هِـزّة   كما انتفض العصفور بلّله القطـر

وقد وصف سيدنا علي رضي الله عنه أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: (كانوا إذا ذُكِرَ الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى تبلّ ثيابهم)[1].

ومعنى مادوا: أي: انفعلوا واضطربوا حتى اهتزت أجسامهم.

وقد ذُكر عن بعض أهل المحبة رضي الله عنهم أنه اعترته حالة هيبة مرة في الليل، وأراد أن يذكر الله بقوله: لا إلّه إلا الله، فتهيّب ولم يَعد يستطيع النطق بها، وهو يحاول ذلك من أول الليل إلى آخره حتى نطق بها عند الفجر، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وهذا هو مقام الإخلاص، فَمَنِ استخلصه الله تعالى مِنْ رقّ الأسباب فقد صار

---

(١) حلية الأولياء (١/٧٦).

مُخلَصاً لله تعالى في عمله، قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ [مريم: ٥١]. وفي الآية: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

وعلى هذا فإنّ الإخلاص لا يكون إلاّ بعد الخلاصِ من الأغيار، حتى من نفس العبد نَفْسِه.

* **ومن وصاياه الكريمة صلى الله عليه وآله وسلم** : وصيته لمعاذ رضي الله عنه، ففي الحديث[1] عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ بيده يوماً ثم قال: «يا معاذ إني لأحبك».

فقال له معاذ رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأنا أحبك.

قال: «أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

فهذه وصية مُحِبٍّ لمحبوب.

وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول: (اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة) يريد تحقيق الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾.

---

(١) الذي رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٢٤٥) وأبو داود في كتاب الصلاة (١٥٢٢) والنسائي (٣/٥٣) وابن حبان (٢٠١٧) والحاكم في المستدرك (١/٢٧٣).

* **ومن وصاياه الجامعة صلى الله عليه وآله وسلم**: ما ورد في الحديث الشريف[1] عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

* **ومنها وصيّته صلى الله عليه وآله وسلم** لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه والياً إلى اليمن: كما جاء في المسند[2] عن معاذ رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج معه يُوصيه، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمشي تحت راحلته ومعاذ رضي الله عنه راكب، فلما فرغ ـ أي: من الوصية ـ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري» فجعل معاذ رضي الله عنه يبكي جشعاً لفراق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ثم التفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولى الناس بي المتقون؛ مَن كانوا، وحيث كانوا».

وكان فيما أوصاه صلى الله عليه وآله وسلم وصايا أخلاقية أدبية، ومنها أصول تشريعية في القضاء والحكم بين الناس. منها ما جاء في المسند[3]، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «أوصاني

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/٣٠٦) والبيهقي في الشعب (١٠٢٤٨).
(٢) (٥/٢٣٥).
(٣) (٥/٢٣٨).

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعشر كلمات.. قال: «لا تشرك بالله شيئاً وإن قُتلت وَحُرِّقتَ، ولا تعصِ والديك وإن أمراك أن تَخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمّداً؛ فإن من ترك صلاة مكتوبة ـ أي: مفروضة ـ متعمّداً فقد برئت منه ذمّة الله تعالى، ولا تشربن خمراً فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية فإن بالمعصية حلّ سَخَطِ الله، وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس، وإذا أصاب الناس موتان ـ أي: بالطاعون ـ وأنت فيهم فاثبت، وأنفق على عيالك مِنْ طولك، ولا ترفع عنهم عصاك أدباً[١]، وأخِفْهم في الله عزّ وجلّ».

وكان فيما أوصاه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً[٢]: «إياك والتنعّم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين[٣]».

أما فيما يتعلق بالحكم والقضاء فأوصاه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء»؟

فقال معاذ رضي الله عنه: أقضي بكتاب الله.

قال: «فإن لم تجد في كتاب الله»؟ ـ أي: إن لم تجد نصاً ظاهراً في الحكم ـ.

قال: فبسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: «فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا في كتاب الله»؟

---

(١) أي: كن مؤدباً لهم، واعظاً لهم على الدوام. وهم الزوجة والأولاد.

(٢) المسند (٥/٢٤٣).

(٣) أي: إياك أن تترفّه ترفّه الأمراء، لأنك ستذهب إلى اليمن أميراً عليها، فلا تعبث بأموال الناس مترفّهاً.

قال: أجتهد رأيي ولا آلو.

فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صدره وقال: «الحمد لله الذي وَفّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسول الله[1] صلى الله عليه وآله وسلم».

وقوله رضي الله عنه: «أجتهد رأيي ولا آلو» أي: أجتهد ولا أقصّر في تحصيل مسألة ورد حكمها في الكتاب أو السنة، حتى أعرض المسألة عليها، وأُدخلها تحت ذلك الأصل اجتهاداً.

ولقد كانت اليمن من البلاد الواسعة، وكانت منقسمة إلى قسمين يُسَمَّيَانِ: مِخْلافين، وكل قسم يقوم عليه أمير، فأرسل عليه الصلاة والسلام إلى أحد المخلافين معاذاً رضي الله عنه، وإلى الآخر أبا موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقد أوصاهما حين بعثهما فقال: «إنكم ستأتون أهل كتاب، فليكن أول ما تدعونهم إليه شهادة أن لا إلّه إلا الله» وفي رواية أنه صلى الله عليه وآله وسلم أفرد الخطاب لمعاذ فقال: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن هم أطاعوا لذلك ـ وفي رواية[2]:

---

(١) المسند (٥/٢٤٢) وسنن أبي داود في أوائل كتاب الأقضية (٣٥٩٢) والترمذي (١٣٢٧).

(٢) في صحيح البخاري كتاب الزكاة (١٤٥٨) وصحيح مسلم كتاب الإيمان (١٩).

وفي هذا ردّ على من زعم أن لله ولداً كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فإذا عرفوا الله» أي: كما =

«فإذا عرفوا الله» ـ فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم» أي: خذ من أوسط أموالهم، لا من النفيس ولا من الرديء «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١). أي: لا تهمل المظلوم وخذ الحقّ له واعتبره قويّاً.

وقال لهما صلى الله عليه وآله وسلم: «يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعا ولا تختلفا»(٢).

وهناك شيء طوى ذكره صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ قوله: بشّرا يقابله: ولا تنذرا، فكأنه قال عليه الصلاة والسلام: بشّرا ولا تنذرا، وآنسا ولا تنفّرا.

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من وصيته قال لمعاذ رضي الله عنه: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا»

= يجب أن يُعرف بأنه لا شريك له، ولا ولد له سبحانه وتعالى، وقد جعل صلى الله عليه وآله وسلم شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، جعلها أول مراتب المعرفة، وهي أول مراتب الهدى من الضلال، وفي رواية: «فإن هم عبدوا الله فأعلمهم» ومعنى: «عبدوا الله» أي: عبدوه كما يجب أن يعبد، بتعليمك لهم يا معاذ رضي الله عنه.

(١) الحديث في المسند (١/٢٣٣) وصحيح البخاري أول كتاب الزكاة (١٣٩٥) وصحيح مسلم (١٩) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) كما في المسند (٤/٤١٧) وصحيح البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف (٣٠٣٨) وصحيح مسلم في كتاب الجهاد (١٧٣٣).

وهنا عرف معاذ رضي الله عنه أن أجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد اقترب، فبكى معاذ رضي الله عنه جشعاً لفراق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعاذ رضي الله عنه في اليمن، ولم يره بعد ذلك، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم بعثه إلى اليمن قُبيل حجة الوداع، ولم يزل معاذ رضي الله عنه في اليمن، وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد حجة الوداع بواحدٍ وثمانين يوماً، وهذا يدل على أَنّ الله تعالى قد أطلع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على وقت وفاته، ومدة أجله، وعلى موضع قبره ووفاته عليه الصلاة والسلام، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

أمّا ما جاء في بعض الروايات[1] أنه لما رجع معاذ رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استأذنه أن يَسجد له، وأخبره أَنّه رأى رجالاً يسجدون لبعضهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «لو كنت آمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» فإن هذا لم يكن عندما رجع من اليمن، بل عندما رجع من الشام، ورأى فيها النصارى يسجدون لقساوستهم.

واعلم أن في التفاته صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة حين قال: «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا» فيه إشارة إلى أن مجمع أرواح المتقين هو في حضرة رسول الله صلى

---

(١) ينظر المسند (٤/٣٨١) وابن ماجه أول كتاب النكاح (١٨٥٣) عن سيدنا عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

الله عليه وآله وسلم، وكأنه في التفاته صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إلى تلك الأرواح، فلمّا تكلّم صلى الله عليه وآله وسلم تكلّم عن شهود، وعايَنَ اجتماع المتقين في حضرته فقال: «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا».

وفي هذا إرشاد إلى أن تقوى المتقي تجمعه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإن بَعُدت المسافة الحسّيّة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أولى الناس بي المتقون» أي: أحقّ الناس بشفاعتي ومجالستي وعنايتي إنما هم المتقون.

وقد أخبر سبحانه عن أوليائه فقال: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: ما أحباب الله وأصفياؤه إلا المتقون، وهؤلاء هم أحباب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجلساؤه، فالمقربون إلى الله هم المقربون إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. كما أن المتقين تتحقق لهم النسبة الدينية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم عندما سئل مَن آل محمد؟ فقال: «كل تقي»[(١)].

وفي هذا تسلية لسيدنا معاذ رضي الله عنه، ليخفف صلى الله عليه وآله وسلم عنه ما أحزنه، أي: إنك يا معاذ وإن بَعُدْتَ عني جسماً فأنا معك وأنت معي روحاً، وهذا حال كل المتقين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

---

(١) قال في مجمع الزوائد (٢٦٩/٧): رواه الطبراني في الأوسط والكبير.

❖ المحاضرة الثامنة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

* **ومن وصاياه العامة صلى الله عليه وآله وسلم**: إيصاؤه بالتمسك بكتاب الله تعالى، وسنته صلى الله عليه وآله وسلم: فقد أوصى صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الأحاديث بالكتاب وحده، وفي بعضها الآخر بسنته، ولكن الوصية بكتاب الله تتضمن الوصية بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧].

وروى مسلم[١]، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فينا خطيباً بماء يدعى: خُمّاً، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكّر، ثم قال: «أما بعد: ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب».

---

(١) في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل سيدنا علي رضي الله عنه (٢٤٠٨).

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما أنا بشر» أي: لابدّ لي من الموت، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم ليس كسائر البشر، إذ خصّه الله تعالى بوحي النبوّة والرسالة، وبذلك امتاز وتَرفّع عَن غيره من البشر، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: تجري عليه صلى الله عليه وآله وسلم الأحكام البشرية من: أكل وشرب وموت، إلا أنه اختصّ وامتاز عن غيره بمقام: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

وقد أشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا فقال: «إني لست مِثْلَكم، إني أبيت يُطعمني ربي ويسقيني»[1] ولاشك أن إطعام الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وسقياه له ليس كإطعامه لسائر البشر، ولو كان هذا هو المراد لأفطر عليه الصلاة والسلام، وقد نَهاهم عن الوصال في الصيام، فدلّ على أن مراده من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يطعمني ربي ويسقيني» أي: من الأمور والمعاني الروحانية العالية، التي تُغذي وتمدّ الروح والبدن.

أمّا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يوشك أن يأتي رسول ربي» أي: رسول ربي بالتخيير، وهو جبريل عليه السلام، أو رسول ربي بالوفاة؛ وهو ملك الموت عليه السلام، وكلاهما قد حصل، فلقد أرسل الله إليه صلى الله عليه وآله وسلم رسوله جبريل عليه السلام فخيّره؛ فاختار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الانتقال إلى الله تعالى، كما ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جلس على المنبر فقال: «إن عبداً خيّره الله

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٣٢).

بين أَنْ يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده؛ فاختار ما عنده»[1].

ثم أتاه رسول ربه وهو ملك الموت بالوفاة.

«وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحثّ على كتاب الله ورغّب فيه، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»[2].

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثقلين» أي: أمرين عظيمين في أداء حقوقهما، لأن حقوقهما كبيرة تثقل على صاحبها، فعليه أن يقوم بها بقوة ونشاط.

«أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنور» فلا نور ولا هدى إلا في القرآن الكريم والتمسك به، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾.

فبيّن سبحانه أنه هو الذي يهدي مَنْ يشاء، ولكنه أثبت الوساطة والوسيلة في هديه للعباد، وهو بواسطة وسبب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهذا لأنه صلى الله عليه وآله وسلم السراج المنير الذي تستنير به العباد وتهتدي به، فالنور الإلّهي إنَّما يتنزل مباشرة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَمِنْ ثمّ ينعكس على القلوب حسب استعدادها

---

(١) صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة (٣٦٥٤)، وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة (٢٣٨٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٤٠٨).

وقابليتها، ولذلك فهو صلى الله عليه وآله وسلم المَجْلَى الأعظم، والمنزل الأول، والحضرة الأولى في كل العوالم.

وفي الحديث[1] عن سيدنا عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا إنها ستكون فتنة».

فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟

قال: «كتاب الله: فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه مِنْ جبار قصمه الله تعالى، ومن ابتغى الهُدى في غيره أضلّه الله تعالى، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق على كثرة الردّ» أي: لا يُسأم ولا يُملّ من تكراره «ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجنّ إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١ـ٢].

مَنْ قال به صَدَق، ومَنْ عمل به أُجِر، ومَنْ حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم».

* وصيته صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه عامة:

عن عبد الله بن المغفل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهَ اللهَ في أصحابي، اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فَمَن أحبهم فبحبّي أحبّهم، ومن أبغضهم

(١) الذي رواه الدارمي في كتاب مناقب القرآن الكريم (٢/٤٣٥) والترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٨).

فبغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله عزّ وجل، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[1].

* وصيته صلى الله عليه وآله وسلم بخاصة أصحابه:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تسبّوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»[2].

يخاطب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صحابته، ويوصيهم بالصحابة، لأنّ الصحابة يفضل بعضهم على بعض، ففي هذا الحديث يخاطب صلى الله عليه وآله وسلم عامة الصحابة مُوصياً لهم بخاصة أصحابه، ولو أن أحداً من عامة الصحابة أنفق مثل أحد ذهباً في سبيل الله تعالى، ورجل آخر من خاصة صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنفق مدّاً ـ وهو مقدار قبضة اليد ـ من شعير أو حنطة، فالذي أنفق مثل الجبل ذهباً لا يبلغ في الأجر والفضل مقام ذلك الصحابي الذي أنفق مقدار مدّ من شعير أو حنطة.

فيتبين لك من هذا تفاضل الصحابة على بعضهم، فما بالك بفضل الصحابة على التابعين أو من بعدهم؟!!

* وصيته صلى الله عليه وآله وسلم بالأنصار:

روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى، عن سيدنا أنس بن مالك

---

(١) كما في المسند (٥/٥٤) وسنن الترمذي في كتاب المناقب (٣٨٦١).

(٢) كما في المسند (٣/١١ و٥٤) وصحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة (٣٦٧٣) ومسلم في أواخر كتاب فضائل الصحابة (٢٥٤٠).

رضي الله عنه قال: مرّ أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون. فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم مِنّا. فدخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره بذلك.

قال: فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد عصب على رأسه حاشية بُرْدٍ، قال: فصعد المنبر ولم يَصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أوصيكم بالأنصار، فإنهم كَرِشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقيَ الذي لهم، فاقبلوا مِنْ محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم»[1].

ومعنى: «كَرِشي» أي: بِطانتي، ومعنى: «عيبتي» أي: خاصتي فأنزلهم بمنزلة أبعاضه وجسمه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى الإمام البخاري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أَنّ ناساً من الأنصار قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فَطفِق يُعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل ـ وذلك تأليفاً لهم لأنهم حديثو عهد بكفر ـ فقالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يُعطي قريشاً ويدعنا؛ وسيوفنا تقطر من دمائهم.

قال أنس رضي الله عنه: فَحُدِّث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قُبة من أدم، ولم يَدْعُ معهم أحداً غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ما كان حديث بلغني عنكم»؟

---

(١) صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار (٣٧٩٩).

قال له فقهاؤهم: أما ذوو آرائنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس مِنّا حديثة أسنانهم ـ أي: هم شباب ـ فقالوا: يَغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ يُعطي قريشاً ويترك الأنصار وسيوفنا تقطر من دمائهم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لأُعطي رجالاً حديثٌ عهدهم بكفر ـ أي: ولا يلزم من هذا أنهم أحب إليّ منكم ـ أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رحالكم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به».

قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا.

فقال لهم: «إنكم سترون بعدي أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض»[١].

وفي رواية[٢] أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لهم: «لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشِعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شِعَار والناس دثار» أي: الأنصار هم ثوبي على اللحم وهو الشّعار، والدثار ما كان فوقه من ثوب.

---

(١) البخاري في كتاب فرض الخمس (٣١٤٧) وهو في المسند (١٦٦/٣) وعند الإمام مسلم في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (١٠٥٩).

(٢) في المسند (٤٢/٤) وصحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف (٤٣٣٠) ومسلم في كتاب الزكاة (١٠٦١) عن سيدنا عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

*** ومن خصائص الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم:**

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٣].

فهذا البعض الذي رفعه الله درجات عامة على غيره من الأنبياء والرسل هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد جاء ذكره صلى الله عليه وآله وسلم في الآية الكريمة وسطاً بين موسى وعيسى عليهما السلام، لتوسط شريعته بين شريعة موسى وعيسى، وجمعها كمال الشريعتين، لأن شريعة سيدنا موسى عليه السلام اتصفت بالشدة والمشقة في التكاليف، وشريعة سيدنا عيسى عليه السلام اتصفت باللين والتسامح، أما الشريعة المحمدية فقد جاءت بكمال الشريعتين.

وكل نبيّ ارتفع درجات، وإنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد ارتفع إلى تلك الدرجات، وزاد عليهم درجات ما نالها غيره من المرسلين عليهم السلام.

فقد رفع الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام درجات في مقام الحجة والبرهان القاطع على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] وقد ارتفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى تلك الدرجات؛ وزاد على إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وقد رفع الله تبارك وتعالى يوسف عليه السلام درجات في حسن تدبير السياسة، وشؤون المملكة، ومصالح الرعية.. قال سبحانه:

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

فجعله الله على خزائن الأرض، كما أخبر سبحانه عنه بقوله: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] والمراد بالأرض في هذه الآية الكريمة: أرض مِصر وما حولها، كما يدل عليه سياق الآيات الكريمة. فأعطاه الله تعالى مقام التصرف ورعاية شؤون المملكة، وصارت خزائن مصر تحت سيطرته وتصرّفه.

ولقد رفع الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى تلك الدرجة وزاد عليها؛ بأن أعطاه الله تعالى مفاتيح خزائن الأرض كلّها.

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج يوماً فصلى على أهل أُحد صلاته على الميّت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فَرَطٌ لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»[1] وفي رواية[2]: «فَتُهْلِكَكُمْ كما أهلكتْهُمْ».

فلم يَخف النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أمته أن تَعبد الصنم الحجري، ولكنه خاف أن تعبد الصنم الدرهمي.

---

(١) الحديث في المسند (٤/١٤٩) وصحيح البخاري، في كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد (١٣٤٤) وصحيح مسلم، كتاب الفضائل (٢٢٩٦).

(٢) في صحيح البخاري أول كتاب الجزية والموادعة (٣١٥٨) وصحيح مسلم أول كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦١).

ونال صلى الله عليه وآله وسلم الهيمنة والسيطرة على الخزائن الأرضية كلّها بما فيها، وصار سلطاناً عليها. والأرض فيها خزائن مخزونة، وكنوز مكنوزة، حسيّة ومعنويّة، ظاهرة وباطنة، ومفاتيح تلك الخزائن بأجمعها بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن الخزائن: عالم النبات، وإن الإنسان يُعَدُّ من عالم النبات قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتًا﴾.

وهناك الخزائن المعدنية.. وهناك وهناك..

ومن المعلوم أنه لا يَنَالُ السلطة والهيمنة على الخزائن إلا من كان حفيظاً عليماً. أي: حفيظاً للخزائن عن التدهور والفوضى، عليماً بتنزيل الشيء من الخزائن إلى موضعه، ولذلك قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فطلب أن يجعله الله تعالى على خزائن الأرض؛ لأنه أهل لذلك: بحفظه لها، وعلمه بتدبير شؤونها، وإنزال الأشياء منازلها، فأقدم عليها يوسف عليه السلام لوجود الأهلية والاستعداد عنده.

فلما أعطى الله تعالى سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام مفاتيح خزائن الأرض كلها، فلابدّ أنه صلى الله عليه وآله وسلم على درجة كبيرة من الحفظ والعلم، ومقامه صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك فوق مقام يوسف عليه السلام، لأن خزائن يوسف عليه السلام خاصّة مُحدّدة بمصر وما حولها، وأما خزائن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهي خزائن الأرض كلها، وهذا يدل على سعة علم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتصرف بالكائنات، وحفظه لهذه الخزائن. ولذلك أقامه الله جلّ وعلا مهيمناً وسلطاناً عليها.

ومن هنا فاعلم أن كل خير ينزل من هذه الخزائن إنما ينزل بقدر معلوم عن واسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم صاحب المفاتيح، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما أنا قاسم والله يعطي»[1] وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم واسطة الله تعالى في كل خير إلٰهي ينزل على هذا العالم.

ويستدلّ منه أيضاً أنه صلى الله عليه وآله وسلم أُعطي أعظم مقام في التدبير بأمر الله تعالى، ووحيه وإذنه وتعليمه، فهو صلى الله عليه وآله وسلم قطب الأقطاب، وغوث الأغواث.

ومن تلك الدرجات التي رفعه الله تعالى إليها وفضّله بها على سائر الأنبياء والمرسلين: أنه فاتِحُ النبوة وخاتمها، وأنه أول الأرواح خَلقاً في عالم الأرواح:

جاء في الحديث الذي رواه الترمذي، وصحّحه الإمام أحمد وغيره، بأسانيد كثيرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله متى وجبت لك النبوة[2]؟ ـ أي: ثبتت ـ وفي رواية[3]: متى

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٢٣٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وهو في صحيح البخاري كتاب العلم (٧١) وصحيح مسلم كتاب الزكاة (١٠٣٨) عن سيدنا معاوية رضي الله عنه.

(٢) كما في سنن الترمذي، أول كتاب المناقب (٣٦١٣)، والمستدرك (٢/٢٠٩).

(٣) في المسند (٤/٦٦) و(٥/٣٧٩).

جُعِلت نبياً؟ وفي رواية[1]: متى كنت نبياً؟ وفي رواية[2]: متى استنبئت؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وآدم بين الروح والجسد».

وفي رواية[3]: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد».

وهذا يدلّ على أن الله تعالى خلق روح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل الأرواح، ونبأها قبل أن يخلق روح آدم وجسمه. فنبأه الله وأعلمه أنه نبي الله في ذلك العالم.

ولم يقل عليه الصلاة والسلام: كنت إنساناً، أو شيئاً موجوداً، بل قال: «كنت نبياً» أي: أُعطيت النبوة حقيقة، والحال أن آدم عليه السلام لم يُخلق بعد لا جسماً ولا روحاً، ولو كان آدم روحاً ولم يكن له جسم لقال صلى الله عليه وآله وسلم: وآدم كان روحاً. ولو كان جسماً ولا روح له لقال: وآدم جسماً، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «وآدم بين الروح والجسد».

إذاً آدم إذ ذاك لا روحاً ولا جسداً.. كما تقول: جلست بين الساريتين. أي: لا إلى هذه ولا إلى تلك، وتقول: فلان بين الأمرين. أي: لا إلى هذا الأمر ولا إلى ذاك.

وقد يقال: إذاً أين آدم؟ والحديث يقول: «وآدم بين الروح والجسد» فما هو وجود آدم وقتئذٍ؟

فيقال: إن روح آدم لم تُخلق، ولم يُخلق جسمه أيضاً عندما نبئ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) في طبقات ابن سعد (١/١٤٨) وفي المستدرك للحاكم (٢/٦٠٩).

(٢) عند ابن سعد في الطبقات (١/١٤٨).

(٣) عند ابن أبي شيبة في المصنف (٨/٤٣٨).

أما آدم المحدَّثُ عنه فكان موجوداً بغير الوجود الروحاني أو الجسماني، فقد كان موجوداً في قبضة الله تعالى، كما جاء في الحديث أن آدم عليه السلام لما خيّره الله تعالى.. قال آدم: «اخترتُ يمين ربي؛ وكلتا يَدَيْ ربي يمين مباركة، ثم بسطها الله تعالى فإذا فيها آدم وذريته» الحديث[1].

فآدم المختار رأى نفسه وذريته في قبضة الله تعالى ـ العين واحدة والوجود متعدد ـ.

وهكذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وآدم بين الروح والجسد».

فهو عليه السلام لم تُخلق روحه ولا جسده وقتئذ، وإنما يدور أمر الله تعالى في تكوين روحه وخلق جسده.

فهذا الحديث يدلّ على أن روح النبي صلى الله عليه وآله وسلم مخلوقة قبل الأرواح عامة، وأعطاه الله النبوّة في ذلك العالم، ثم بعد ذلك خلق سبحانه الأرواح ثم الأجساد.

تنبيه: ليس المراد من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كنت نبياً» أي: كُتِبْتُ نبياً، لأن سؤال الصحابة له كان: متى جعلت نبياً؟ وفي رواية: متى وجبت لك النبوة؟ فكان جوابه صلى الله عليه وآله وسلم مناسباً للسؤال، وهو متى جعله الله نبياً بالواقع والحقيقة؟ فأجاب: «كنت نبياً» أي: بالحقيقة والحال أن «آدم بين الروح

---

(١) طرف من حديث رواه الترمذي في آخر كتاب تفسير القرآن (٣٣٦٥) وابن حبان (١٥/٨) والحاكم في المستدرك (١/٦٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

والجسدِ» وأما ما يتأوّله بعض الجهلة من أن المراد: أنه صلى الله عليه وآله وسلم كُتِب نبيّاً ولم ينبّأ بالواقع، فهذا تأويل باطل، لأن سائر الأنبياء والمرسلين كتبوا أنبياء قبل أن يَخلقهم الله تعالى، بل وسائر المخلوقات مكتوبة قبل أن يخلقها الله تعالى، فما وجه هذه الميّزة والدرجة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندئذ؟!!

فقد خلق الله تعالى روح النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الأرواح، ونبأها في ذلك العالم، وأعلم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك فقال: «كنت نبيّاً».

وهذا المعنى يدل عليه ظواهر الأحاديث، وإشارات الآيات القرآنية.

ولقد أعطاه الله تعالى النبوة بحذافيرها، وسائر مراتبها ومقاماتها، ثم أرسل الله تعالى الأنبياء إلى عالم الشهادة الدنيوي نُوَّاباً ووكلاء عنه عليه الصلاة والسلام، فكان أول نائب ووكيل ظهر في عالم الشهادة هو آدم عليه السلام، وآخرهم عيسى ابن مريم عليه السلام، ولذلك وقع بين آدم وعيسى عليهما السلام ـ أي: بين الوكيل الأول والأخير ـ تماثل وتشابه في الخَلق والتكوين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فكل الأنبياء والمرسلين كانوا نوّاباً عنه صلى الله عليه وآله وسلم، لأن نبّوته عليه الصلاة والسلام كانت باطنة، لأن اسم الباطن كان متجلّياً عليه، فلما آن أوان ظهوره صلى الله عليه وآله وسلم في عالم الشهادة، تجلّى الله عليه باسم الظاهر.

فظهر صلى الله عليه وآله وسلم روحاً وجسماً في هذا العالم

وهو بعثته في عالم الدنيا، ولمّا جاء الأصيل بطل حكم الوكيل، فجاءت شريعته صلى الله عليه وآله وسلم ونسخت ما قبلها من الشرائع، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»[1].

وفي رواية[2]: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي».

وفي رواية[3]: «لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتبعني» أي: ما كان له أن يعمل بشرعه أو يدعو إليه، بل يتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعثه الله تعالى في عهد آدم عليه السلام لوجب على الكل عندئذ أن يعملوا بشرعه إلى يوم الدين، ولكن اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون ظهوره في عالم الشهادة بعد ظهور نبوات خلفائه ووكلائه عليه الصلاة والسلام، وبعد ذلك يظهر صلى الله عليه وآله وسلم وتندرج في نبوته شرائع النبيين قبله، وتندرج في رسالته رسالات مَنْ قبله مِنَ المرسلين، فيكون هو صلى الله عليه وآله وسلم جامعاً لهم كلهم.

قال الله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَۗ﴾ وفي قراءة سبعية: ﴿وَخَاتِمَ

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٣٨٧) وعزاه في مجمع الزوائد (١/١٧٤) لأبي يعلى والبزار عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٢) في شعب الإيمان للبيهقي (١/٢٠٠) حديث رقم (١٧٦).

(٣) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٣٣٨) وعزاه في مجمع الزوائد (١/١٧٤) للبزار عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: ختمت له النبوات، أي: جمعت له، وزاد عليهم بنبوته المحمدية، وختمت به النبوّات فهو آخرهم في عالم الشهادة.

فقد جمع الله تعالى له جميع مقامات الأنبياء قبله، وزاده بالمقام المحمديّ الخاصّ، فهو صلى الله عليه وآله وسلم يُغني عن الكل، والكل لا يغنون عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم نبي الأنبياء، ولهذا أخذ الله تعالى العهد على جميع الأنبياء وأمرهم أن يأخذوا العهد على أممهم أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام، وأنهم إن أدركوه يجب عليهم متابعته ونصرته: قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي: عهدي ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران:٨١ـ٨٢]. ومعنى: ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: مؤيد وشاهد لكم بالنبوة والرسالة.

وذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة قول سيدنا علي وابن عباس رضي الله عنهما: (ما من نبي بعثه الله تعالى إلا وأخذ عليه العهد لئن بَعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وهو حَيٌّ ليؤمنَنّ به ولينصرَنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بُعِث محمد وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنّه).

ولهذا لمّا ينزل عيسى ابن مريم في آخر الزمان، لا يسعه إلا أن

يتّبع سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ويعمل بشريعته، عملاً بالميثاق الإلّهي الذي عاهد الله عليه.

ولو كان لموسى أو لإبراهيم عليهما السلام أو غيرهما من الأنبياء عليهم السلام ظهور في عالم الشهادة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لَمَا وسعهم إلا أن يعملوا بشريعته صلى الله عليه وآله وسلم.

ويظهر هذا المقام المحمدي جليّاً يوم القيامة، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر» الحديث[١]. فيندرج الأنبياء كلهم تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أنه عليه الصلاة والسلام لمّا بُعث في عالم الشهادة اندرجت نبوات الأنبياء قبله في نبوته، واندرجت رسالات مَنْ قبله في رسالته، وشرائعهم في شريعته.

وممّا يدل على هذا ويؤكده: أَنّ كل نبي من الأنبياء، وكل رسول من الرسل السابقين كان يبعث إلى أمم وأقوام خاصة، وليس هناك رسول إلى العموم إلا النبي سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم.

قال سبحانه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

---

(١) طرف من حديث طويل رواه الإمام أحمد في المسند (٢٨١) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، والترمذي في كتاب التفسير (٣١٤٧) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وغيرهما.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «بعثت إلى الأحمر والأسود»[1].

فقد نال صلى الله عليه وآله وسلم ما ناله الأنبياء قبله، وزاد عليهم برسالته الخاصة المحمدية، ولهذا اندرجت رسالاتهم في رسالته صلى الله عليه وآله وسلم لأنها عامّة لجميع الخلق، وكذا نبوّاتهم اندرجت في نبوته عليه الصلاة والسلام، واندرجت أسرار شرائعهم في شريعته عليه الصلاة والسلام.

ولَمَّا ظهرت رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يظهر لبقية الرسالات مَظْهر، كما أن نور الكواكب يظهر لك عندما يحتجب نور الشمس عن الأبصار، وليس للكواكب نور من ذاتها، بل إن نورها مستفاد من نور الشمس، فهي تتوجه إلى الشمس لتستفيد النور، وينعكس فيها على الخلق، حتى إذا طلعت الشمس فما ترى للكواكب أثراً ولا مظهراً، فهي موجودة لكنها اختفت. أي: اندرجت أنوارها تحت نور الشمس الباهر.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم السراج المنير، وهو شمس النبوة، وعن هذه الشمس المحمديّة استفاد الأنبياء أنوار نبوّاتهم، وهذا معنى قول القائل:

فإنه شمس فضل هم كواكبها	يُظهِرن أنوارها للناس في الظُّلَمِ
وكلهم من رسول الله ملتمس	غرفاً من البحر أو رشفاً من الدِّيَم
وواقفون لديه عند حدّهمُ	من نقطة العلم أو من شَكْلَةِ الحكم

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٣٠٤) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) وينظر فيه (٥٢٣).

فهو الذي تمّ معناه وصورته ثم اصطفاه حبيباً بارئ النَّسَمِ
محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم

قال سبحانه بعد ما ذكر طائفة من المرسلين عليهم الصلاة والسلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ أي: هداهم الله تعالى بالهدي النبوي، وهدي الرسالة، ولم يقل: بهم اقتده، بل قال سبحانه: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ لأن هديهم من الله تعالى، ولم يقل: اقتد بهدي آدم أو إبراهيم، أو بهدي غيرهما.. بل بهداهم كلهم اقتده. أي: كل هديٍ هداه الله تعالى لنبي أو رسول فهو لك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهديهم من الله تعالى، فقد هدى الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالهدي الآدمي، والهدي النوحي، وبالهدي الذي هدى إليه الكل من نبي أو رسول، كما هداه بالهدي الخاص المحمدي، فَهَدْيُهُم كلُّهم مجموع له صلى الله عليه وآله وسلم، أما هديه فلم يكن عندهم.

وأما معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تفضلوني على يونس بن متى»[1] أي: تفضيل نقص وازدراء بالمفضول، فالأنبياء عليهم السلام كلهم فُضلاء، لكنه صلى الله عليه وآله وسلم أفضل منهم.

أما النهي عن التفضيل فهو نهي عن التفضيل الذي يُنقص من

---

(١) كذا في تفسير القرطبي وابن كثير وغيرهما عند تفسير الآية (٢٥٣) من سورة البقرة. وينظر في صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء (٣٣٩٥ و٣٤١٢) وصحيح مسلم في كتاب الفضائل (٢٣٧٦) عن سيدنا أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم.

المفضول، ولهذا لمّا أعلمه الله تعالى أنه أفضل الأنبياء وسيدهم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»(١) أي: أقول هذا بوحي من الله تعالى إلَيّ؛ لا تعظّماً ولا كِبْراً.

وهكذا فهو صلى الله عليه وآله وسلم سيد الأنبياء، ونبي الأنبياء، وإمام الرسل وخطيبهم يوم القيامة وهو أمامهم.

ومن خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم التي خصّه الله تعالى بها دون غيره من المرسلين: قوله سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ وأول ما يشمل هذا الفتح صلح الحديبية، وفتح مكة ـ وهما سبب نزول الآية ـ ولكنها تشمل هذا وفوق هذا.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ يدلّ على أَنّ الأمر فيه تخصص لم ينله غيرك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فلقد أعطاه الله تعالى وفتح له فتح المكاشفة والمشاهدة، فأراه جميع العوالم الغيبية، وفتح له فتحاً في الكلام، فكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا تكلّم في أمر تكلّم بجوامع الكلم. أي: بكلام ألفاظه قليلة ومعانيه كثيرة.

كما أُعطي عليه الصلاة والسلام فتحاً في نيل المقامات كلّها، وأُعطي في الفتوح أنواعه ومراتبه.

فمن جملة ما فُتِحَ له في المكاشفة: أنه عليه الصلاة والسلام

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (١/٢٨١) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، والترمذي في كتاب التفسير (٣١٤٧) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وهو في صحيح مسلم أول كتاب الفضائل (٢٢٧٨) بلفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة».

رأى حوضه في الموقف وهو على منبره الشريف في المدينة المنورة، كما رأى مشارق الأرض ومغاربها، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها»[1].

وفي حديث آخر[2]: «وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن».

قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ فما يُعَدُّ ذنباً بالنسبة للمقام المحمدي فهو مغفور له صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ يغفره بأن لا يُوقعك فيه أبداً.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ولا شك أنه صلى الله عليه وآله وسلم على الهداية منذ صغره، لكن مقام الهداية ليس له حدّ، فهو صلى الله عليه وآله وسلم في ترقّ دائم.

والمراد هنا بالصراط المستقيم: الصراط الجامع للشريعة والتوحيد، وهو المعنيّ في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

ومن جملة ما فتح الله تعالى له: أن أراه الأنبياء وأممهم.. كما تقدم في الحديث[3] عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٢٧٨) ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩) عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٤/١٤٩) والبخاري في كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد (١٣٤٤) ومسلم أول كتاب الفضائل (٢٢٩٦) عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٣) الحديث في المسند (٥/٢٧٨) وصحيح مسلم (٢٨٨٩).

الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي عزّ وجلّ لأمتي أن لا يُهلكها بِسَنَة عامة ـ أي: أن لا يسلط عليهم قحطاً عاماً ـ وأن لا يُسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ـ وهذا عدوان استئصال عام ـ وإنّ ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يردّ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بِسَنَةٍ عامة، وأن لا أسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم؛ حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً».

ولهذا لما نزلت الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: صواعق وأشياء سماويّة ناريّة عامّةً، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أعوذ بوجهك» أي: من هذا العذاب ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي: بالخسف العامّ، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أعوذ بوجهك» فلمّا نزلت: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال عليه الصلاة والسلام: «هاتان أهون وأيسر»[1].

فقد استجاب الله دعوة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن لا يهلك أمته بسنة عامّة، أو يسلّط عليهم عدوّاً أجنبيّاً عنهم فيهلكهم، بل جعل هلاكهم على أيدي بعضهم البعض، وإذا سلّط عليهم عدواً فيكون بواسطة هذا البعض.

---

(١) كما في مسند الإمام أحمد (٣٠٩/٣) وصحيح البخاري كتاب التفسير (٤٦٣٨) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد نزلت عليّ آية أحب إليّ مما على الأرض» ثم قرأها النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، قد بيّن الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟

فنزلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[1].

فقد نالت هذه الأمة المحمدية بشارتها ووعدها الحقّ من الله تعالى بفضل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾ والسكينة تعني: الرحمة والعناية الخاصّة؛ التي تسكن لها القلوب، وتنشرح لها الصدور، فكانت تنزل على الأمم السابقة لا على قلوبهم بل تنزل على ما هو مجاورٌ لهم من الأشياء المباركة الطاهرة، فإما تنزل على أنبيائهم فينالون من خيرها، أو تنزل على آثار نبويّة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٨].

فقد أعطى الله تعالى لقلوب هذه الأمة المحمديّة قوة في القلب، وأعدّ قلوبهم لتنزّل السكينة فيها؛ وإن كانوا ضعاف الأجسام، بخلاف الأمم السابقة فقد كانوا أقوياء الأبدان ضعاف القلوب.

---

(١) كما في المسند (١٩٧/٣) وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن (٣٢٥٩).

سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إمام الرسل وسيدهم وخطيبهم وصاحب شفاعتهم

فقد تقدم إماماً بالرسل ليلة الإسراء، وهو أمامهم إذ هو أول من يدخل الجنة؛ والكل وراءه عليه الصلاة والسلام.

وفي الحديث[1] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعِثُوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشّرهم إذا أَيِسُوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر».

وفي حديث آخر[2] قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم».

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لواء الحمد يومئذ بيدي ولا فخر» واللواء هو الراية، ولكل نبي لواء، وجميع ألوية الأنبياء مندرجة تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال: «آدم فمن دونه» أي: من الأنبياء «تحت لوائي ولا فخر».

---

(١) عند الترمذي في كتاب المناقب (٣٦١٤)، والدارمي في المقدمة.

(٢) في المسند (٥/١٣٧) وسنن الترمذي كتاب المناقب (٣٦١٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وإنما سمي لواء الحمد ـ أي: الثناء على الله تعالى بما يليق به ـ لأن لكل برزخ أو موقف أخروي حمداً وثناءً على الله عزّ وجلّ؛ يجب أن يؤدّى إلى الله تعالى، وهو مطلوب من المؤمن لكي يتقرب به إلى الله تعالى. فلواء الحمد الذي هو لواؤه صلى الله عليه وآله وسلم، جمع كل المحامد والثناءات الإلٓهية التي تتوقف عليها أحوال الموقف.

كما جمع هذا اللواء وحوى أسماء إلٓهيّة لم تظهر آثارها الآن في هذا العالم، وإنما ستظهر في العوالم الأخرى.

فكل الأنبياء والأولياء ينظرون إلى لواء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حسبهم، ويتعلمون منه أسماء ومحامد إلٓهية يحمدون بها الله وَيُثنون عليه، ويتقربون إلى الله تعالى، أما هو صلى الله عليه وآله وسلم فيحمد الله تعالى بجميع تلك المحامد.

فعنه عليه الصلاة والسلام وبواسطته تعلموا الأسماء الإلٓهية والمحامد اللائقة به سبحانه، وراحوا يَحمدون الله تعالى بها.

ولقد استفاد جميع الأنبياء نبُواتهم وعلومَهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك في هذا العالم؛ ولكن هذا الأمر خفي وبطن على المرء.

وإن الله تعالى سيُظهر ذلك علناً ظاهراً يوم القيامة، فترى الأنبياء والرسل يَستفيدون من علوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويتعلّمون منه، ويأخذون عنه كما تقدم.

مقام الوسيلة: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو

أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت له الشفاعة»[1].

ولا شك أن رجاءه صلى الله عليه وآله وسلم محقّق، وأما دعاؤك بالوسيلة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فَلِكَيْ ينالك من هذا الخيرُ الكبيرُ.

فهذا المقام وهو مقام الوسيلة ـ وهو الواسطة ـ يعني: أن كل خير ينزل على أهل الجنة بكافة مراتبهم إنما ينزل عن واسطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو صاحب الوسيلة، فكما أنه وسيلتك إلى الله تعالى في الجنة، ووسيلتك إليه سبحانه في المحشر، وسائر المواقف الأخروية، فهو واسطتك إلى الله تعالى في الدنيا ولا شك، فكل خير ينزل على العالم إنما ينزل عن مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا تستبعد هذا ولا تنكره.

فمن المعلوم شرعاً أن الله تعالى جعل طريقة الحياة عن واسطة إسرافيل عليه السلام، وطريقة زهق الروح عن واسطة عَزرائيل عليه السلام، وطريقة وصول الشرائع والإيمان عن واسطة جبريل عليه السلام، فكذلك جعل الله تعالى كل خير ينزل على هذا العالم عن واسطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه أفضل من الملائكة وأكرم على الله تعالى منهم.

وقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى أنّ روحه ونبوّته سابقة على

---

(١) شطر حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢/١٦٨) ومسلم في كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن (٣٨٤) وغيرهما عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

الأرواح والنبيين، فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: يوم حجة الوداع ـ فقال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً؛ منها أربعة حُرُم: ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان..» الحديث[1].

فالمعنى الظاهر للحديث أنّ الله تعالى لَمَّا خلق الزمان جعل أشهره اثني عشر شهراً، ومنها أربعة حرم، لها مواقع خاصة، فرجب مضر بين جمادى وشعبان؛ وذو القعدة وذو الحجة ومحرم متواليات، لكن بعد ذلك صار المشركون يتلاعبون في حُرُمات هذه الأشهر الحرم، فلمّا يأتي عليهم شهر رجب مثلاً ويكونون في حرب؛ ولا يريدون أن يقفوا عن القتال وقد أدركهم الشهر الحرام، فكانوا يؤخرون حرمة رجب إلى شوّال كي يستمرّوا في الحرب، باعتبار أن القتال محرّم في الأشهر الحرم. كما هو في شريعة إسماعيل عليه السلام.

فلمّا جاء عليه الصلاة والسلام يوم حجّ حجة الوداع عادت الأمور إلى مجراها، وعادت الأشهر الحُرُم إلى مواقعها التي شرعها الله تعالى، وأزال صلى الله عليه وآله وسلم ما هنالك من تبديل.

فَتَدبّر في الحديث: فهم كانوا ينقلون حرمة رجب إلى شوال مثلاً، فصار رجب هو شوال بالظاهر، ولكن بالحقيقة والباطن فإن رجب في موقعه.

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٣٧) والبخاري في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين (٣١٩٧) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين، باب تغليظ تحريم الدماء... (١٦٧٩).

فهنا أشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى أنّ عالم الشهادة الظاهر قد استدار على هيئة خَلْقِه في عالم الباطن والغيب، فأول ما خلق الله تعالى في عالم الغيب من الأرواح روح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونبّأه في ذلك العالم، ثم خلق بقية أرواح النبيين وهكذا.

ثم لما خلق الله عالم الدنيا الظاهر ظهر آدم ونوح والنبيُّون بالظاهر، لكنهم في الحقيقة نواب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويأخذون النبوّة عنه عليه الصلاة والسلام، إلى أن بُعث عليه الصلاة والسلام، فتطابق الظاهر مع الباطن، والشهادة مع الغيب، فاستدار الزمان كهيئته يوم خلقه الله بتطابق الظاهر مع الباطن.

وإليك مثالٌ على أنه صلى الله عليه وآله وسلم أُعطي مقاماً جَمعَ جميع مقامات ونبوات ورسالات مَنْ قبله، وزاد عليهم بمقامه المحمدي الخاص:

رجل عنده مائة ليرة مثلاً، وحوله جماعة، أحدهم عنده خمس ليرات، والآخر عشرة، والآخر عشرون، بحيث إنّ مجموع ما عندهم لا يجاوز المائة. فإنّك إذا نظرت في صاحب المائة ترى فيه صاحب الخمسة، وصاحب العشرة، وهكذا.. فكلّهم مُجتمعون في صاحب المائة، لكن صاحب المائة ليس موجوداً عندهم، بل تقاصروا عن مقامه.

فكل نبوة أو رسالة أعطيها نبي أو رسول، فقد أعطيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنهم أرسلوا إلى أقوام وأمم خاصة، وأمّا هو عليه الصلاة والسلام فأرسل إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وفي هذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث المتّفق عليه[1]، عن جابر رضي الله عنه قال: قال: «أعطيت خمساً لم يُعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود» فاندرجت شرائع الرسل كلهم تحت شريعته الجامعة الباقية إلى يوم الدين، وفي هذا دليل على أنّ شريعته صلى الله عليه وآله وسلم هي أوسع الشرائع، وأنها صالحة ومُصلحة لجميع طبقات البشر إلى آخر الزمن، ولو كانت شريعته صلى الله عليه وآله وسلم تتقاصر عن مصالح الناس الحقيقية لاقتضت حكمة الله تعالى أن لا يجعل رسالته عامّة مستمرّة، بل يجعلها خاصة مؤقتة، لكن رسالته صلى الله عليه وآله وسلم عامّة إلى كافة الناس باقية إلى يوم الدين.

«وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي» فكان الأنبياء السابقون يجمعون ما حصلوا عليه من غنائم في أرض، ويتركونها تحت السماء، فتنزل نار من السماء فتحرقها؛ وهي علامة قبول، أما إذا لم تنزل نار تأكلها دلّ على أنه وقع في المغانم خيانة، وأنه أُخِذ منها دون حق.

أما الأمة المحمديّة وإكراماً لنبيها صلى الله عليه وآله وسلم أباح الله تعالى لها الغنائم.

«وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيّما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان» فلما بَعث الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام، ووطئت أقدامه الشريفة هذه الأرض، تشرفت الأرض وطابت وتباركت، وطهرت ببركته صلى الله عليه وآله وسلم. إذ إن

---

(١) البخاري أول كتاب التيمم (٣٣٥) ومسلم أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة واللفظ له (٥٢١).

الأمم السابقة لم تكن شرائعهم تُبيح لهم الصلاة إلا في معابدهم كالكنائس والبِيَع، فلما بُعث عليه الصلاة والسلام صارت الأرض كلها مسجداً، وكلها موضع سجود وتعبّد.

واعلم أن المساجد بيوت الله تعالى، والجالس في المسجد جليس الله، وتنزل عليه الخيرات الإلّهية، فلما صارت الأرض كلها مسجداً فحيثما كنت تنزل عليك الخيرات الإلّهية، إلا أن المساجد المسمّاة بالأسماء العَلَمِيَّة لها فضل زائد.

وإنّ المساجد نفسها تتفاضل فيما بينها.. كفضل المسجد الحرام أو المسجد النبوي على ما سواهما، فالأرض كلها مسجد عام، وهناك مساجد خاصة، ومساجد أخص منها.. فما أعظم هذا النبي الكريم الذي صارت الأرض ببركته مسجداً، وصارت كلها طاهرة مطهَّرة؟!.

«ونصرتُ بالرعب بين يديّ مسيرة شهر» فالله تعالى يلقي الرعب في قلوب أعدائه ولو كان بينه وبينهم بُعْدُ شهر، ولكن هناك إشارة إلى معنى أدقّ مِنْ هذا وهو: أَن مسيرة القمر حول الأرض تَستغرق شهراً كما هو معروف بالشهر القمري. فبيّن صلى الله عليه وآله وسلم أَن الله تعالى يُلْقي الرعب في قلوب أعدائه مهما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المسافة، فالأرض كلها محاطة بالرعب الملقى في قلوب أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

«وأعطيت الشفاعة».

وفي رواية[1]: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بِسِتٍّ: أعطيت جوامع الكلم،

---

(١) في صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣) وسنن =

ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وخُتِم بي النبيون».

وهذه الخصائص التي خصّ الله بها نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم هي من الدرجات التي رفعه الله تعالى بها على غيره من الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ كما تقدم.

ومن خصائصه عليه الصلاة والسلام ومواقفه: ما قاله الله تعالى في سورة الفتح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: شاهداً على هذه الأمة بالعدالة، حتى تشهد على الأمم السابقة أنهم قد بلغتهم رسلهم ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تَنصروا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تحترموا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: تسبّحوا الله جلّ وعلا.

وفي هذا يَقرن الله تبارك وتعالى ذكر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بذكره، ويأمر سبحانه بوفاء حقوقه جلَّ وعلا مقرونة بحقوق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ تكريماً وتفضيلاً له ﷺ.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

= الترمذي كتاب السِّيَر، باب ما جاء في الغنيمة (١٥٥٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

❖ المحاضرة التاسعة:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو الخليفة الأعظم عن الله تعالى: فهو المبُلّغ عن الله تعالى، والناطق عن الله تعالى، والآمر بأمر الله تعالى، والناهي بنهي الله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ فهذه الآية تدلّ على أنه صلى الله عليه وآله وسلم حبيب الله الأعظم.

ويوضّح هذا ما جاء في حديث الأولياء[1]: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه».

فإذا وصل العبد إلى مقام المحبة، وأحبّه الله تعالى، وصار

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب التواضع (٦٥٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

محبوباً لديه، تولّى عزّ وجلّ جميع شؤونه وحركاته وسكناته، فلا يقع سمعه إلا على ما يرضيه، ولا يقع بصره إلا على ما يرضيه... وهكذا.

فأفعاله كلها مرضِيَّةٌ عند الله تعالى، بحيث صار كلّه لله وبالله ومع الله. أي: أخذه من نفسه وصيّره له. وهو الجذب الإلّهي. فتقف النفس بشهواتها بعيدة كالشيطان الرجيم المطرود.

فانظر هذا المعنى في تولية الله تعالى لعبده المحبوب، وعنايته به، انظره في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فمن بايعه فقد بايع الله.

وقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] أي: أنت يا محمد بمحبوبك وربك، فحركاتك كلها بالله تعالى.

وقال سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال عزّ وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤] أي: أنت يا محمد لمّا أخذت منهم أخذت بأمر الله، فأنت الخليفة عن الله تعالى.

ومن خصائصه عليه الصلاة والسلام أنه نال مقام خليل الله: فقال: «فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»[1].

ومن المعلوم أنّ الله اتخذ إبراهيم خليلاً، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٣٥] إلا أن الله تعالى أعطى لسيدنا محمد

---

(١) طرف من حديث رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب /٣/ (٥٣٢) عن سيدنا جندب رضي الله عنه.

صلى الله عليه وآله وسلم مقاماً في الخلّة أعظم وأرفع من خلّة إبراهيم الخليل عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [البقرة:٢٥٣] فنال عليه الصلاة والسلام مقام خليل الله، وزاد عليه بأنه حبيب الله الأوحد فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر»(١).

والخلّة هي أعلى مراتب المحبّة، وهي تخلّل محبة الله تعالى في جميع ذرات الْمُحِبِّ.

فقد تخلّلت محبة الله تعالى في جميع أجزاء إبراهيم عليه السلام، واتّخذه الله خليلاً ـ أي: محبوباً عظيماً عنده سبحانه ـ فالله تعالى هو خليل إبراهيم، وإبراهيم عليه السلام هو خليل الله تعالى.

ويرحم الله القائل:

تخلّلتَ مسالك الروح مني ... وبذا سمّي الخليل خليلا

فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثي ... وإذا ما سكتُّ كنتَ الغليلا

أي: ضميري وحديث نفسي.

ولقد نال سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام هذا المقام فابتلاه الله تعالى بذبح ولده ليمتحنه: هل لولده الذبيح شيء من المحبة في قلبه، أم أن قلبه كله مُعَلَّق بحب الله تعالى؟ وقد تبيّن أن محبة الله تعالى مستوعبة لكل ذرات إبراهيم عليه السلام، وأنّ محبة ولده ما زاحمت الله في قلبه. ولذلك قال تعالى له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٥ـ١٠٦].

---

(١) طرف من حديث رواه الترمذي في أول كتاب المناقب (٣٦٢٠) والدارمي في المقدمة.

ولمّا كان الخليل على دين خليله، قال تعالى في إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعمّه آزر: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ﴾ [التوبة: ١١٤] أي: فلمّا علم أن الله تعالى لا يُحب آزر لأنه عدوّه تبرّأ منه هو أيضاً.

ولقد نال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مقام الخلة، وتخلّلت محبة الله جميع ذراته وأجزائه الطاهرة، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر، فإنّ له عندنا يداً يكافيه الله بها يوم القيامة ـ وهذا من تواضعه صلى الله عليه وآله وسلم. وإلا فإن أبا بكر ما نال مقام الصِّدِّيقِيَّة إلا بفضل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ـ وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ـ وفي رواية[١]: «ولكن أخوة الإسلام ومودته» ـ ألا وإنّ صاحبكم خليل الله»[٢].

وفي الحديث[٣]: «وما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له كبوة؛ غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم».

ومن هذا أيضاً ما جاء في الحديث، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جلس على المنبر فقال: «عبد خيّره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده؛

---

(١) عند البخاري في كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد (٤٦٦).

(٢) رواه الترمذي في كتاب المناقب، باب /٣١/ (٣٦٦٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) عزاه في كنز العمال للديلمي.

فاختار ما عنده» فبكى أبو بكر رضي الله عنه وبكى فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا ـ فلم يعرف الصحابة مراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه هو العبد المخير في ذلك، لكن أبا بكر فهم هذا وجعل يبكي ـ.

قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو المخيَّرُ، وكان أبو بكر رضي الله عنه أعلمَنا به[1]. أي: بمعاني كلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ أمنَّ الناس عليّ في ماله وصحبته أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام، لا تُبْقَيَنَّ في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر»[2].

وقد نال عليه الصلاة والسلام مقام الخلّة دون ابتلاء أو محنة، بل بفضل الله وكرمه، وزاد عليه الصلاة والسلام على إبراهيم بمقام آخر في المحبة الخاصة يُعبّر عنه بمقام: حبيب الله ـ أي: الحبيب الذي نال مرتبة في المحبة فوق مقام ومرتبة الخلّة ـ ولأجل هذا ظهر الفرق بين المقامين: مقام خلّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومقام محبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) كما في صحيح البخاري كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد (٤٦٦) ومسلم في أول كتاب فضائل الصحابة (٢٣٨٢) واللفظ له.

(٢) صحيح البخاري كتاب الصلاة، باب /٨٠/ (٤٦٧) وصحيح مسلم ـ واللفظ له ـ أول كتاب فضائل الصحابة (٢٣٨٢) وسنن الترمذي كتاب المناقب (٣٦٦١).

فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] وقوله عزّ وجلّ في سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨].

ومن هذا نرى إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء:٨٢] ولكن يقال في حق الحبيب: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

ويقول الخليل: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧].

وأمّا الحبيب فيقال له من الله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ [التحريم: ٨].

فالخليل طالب سائل.. والحبيب مُعْطى.

والخليل يقول: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وأما الحبيب فيقال له: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وإن أول ما تتناوله كلمة الرجس: الشرك، كما قال سبحانه: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] فالأصنام رجس، والأوثان رجس.

والخليل يقول: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣].

والحبيب يُقال له: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] أي: قل يا محمد: إنّ وليي ـ أي: متولّي أموري بالتولية الخاصة (من الولاية) ـ وإن حبيبي الأعظم (من الولاء) هو الله تعالى.

فهذه الآية تدلّك على أنه صلى الله عليه وآله وسلم هو سيد الصالحين، لأنّ تولية الله الخاصة للمخلوق تكون على حسب صلاحه، فلما قال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ أي: تولية خاصة، دلّ على أن له صلى الله عليه وآله وسلم صلاحاً خاصاً ما ناله غيره، فنال الولاء والتولية الخاصة من الله تعالى.

والخليل يقول: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] أي: لسان ثناء وشكر وحمد من الخلق إلى يوم الدين، لكن هذا الثناء يكون بصدق وحق.

وأجاب الله تعالى إبراهيم على ذلك، فجميع الأمم يُثنون عليه، ومن ذلك الأمة المحمدية في الصلاة الإبراهيمية في قعود الصلاة الأخير.

وأمّا الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم فيقال له: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

وفي الحديث القدسي: «لا أذكر إلا ذكرت معي»[1]، ولهذا ترى

---

(١) ينظر تفسير الطبري، وابن كثير، والدر المنثور للحافظ السيوطي وغيرها عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

أن كثيراً من الآيات جاء فيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقروناً بذكر الله تعالى.

واعلم أن في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ بيانَ زيادة فضله وعلوّ مقامه صلى الله عليه وآله وسلم على موسى الكليم عليه الصلاة والسلام الذي قال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ الآيات [طه: ٢٥].

والشرح يقتضي التوسعة، والمكان المنشرح هو الواسع. فشرح الصدر: توسعته.

وكل مؤمن شرح الله صدره على حسب إيمانه، ولذا قال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ...﴾ الآية [الأنعام: ١٢٥].

فلقد وسّع الله تعالى صدر كل مؤمن ليحلّ فيه الإيمان، وفي هذه التوسعة تخلية من الرذائل والأغيار المبعدة عن الله تعالى، لأنه لا يقال عن مكان: إنه واسع، إلا إذا كان خالياً.

وهكذا فقد شرح الله تعالى صدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شرحاً خاصاً فوق كل شرح، وبهذا الشرح وَسِعَ النور النبويّ الخاص به عليه الصلاة والسلام.

وفي صحيح[1] الإمام مسلم رحمه الله تعالى، من حديث الشفاعة الطويل، يقول سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: «لست

---

(١) كتاب الإيمان، باب /٨٤/ (١٩٥).

بصاحب ذلك، إنما كنت خليلاً من وراءَ وراءَ» مشيراً بذلك إلى عظم مقام الخلّة الذي ناله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم نال ذلك بلا حجاب، وقد رأى حبيبه وهو الله تعالى ليلة المعراج.

ولمّا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو حبيب الله الأعظم أي: أعظم محبوب لله تعالى، أمرنا الله تعالى أن نحبّه فوق كل مَحَبَّةٍ، وجعل هذا من الإيمان، كما في الحديث[1] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين».

فالإنسان يُحب والده وولده لأنه يرجو منهم المساعدة والإسعاف والإكرام مثلاً، ولا شك أَنّه عليه الصلاة والسلام أعظم نعمة ومنّة عليك من أبويك، لأن الأب والأمّ لا يُنقذان من الشقاء الأبديّ، أمّا هو صلى الله عليه وآله وسلم فإنه واسطة الإنقاذ من الشقاء، ونيل السعادة الأبدية، فلو بذلت كل ما فيك وما معك لَمَا قابلت هذه النعمة كما ينبغي، بل لا يزال له صلى الله عليه وآله وسلم حقٌّ عليك.

ومن هنا يجب أَن تحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم من محبتك لنفسك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التوبة: ١٢٠] أي: يجب أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحبّ إليك من والدك وولدك وسائر الناس.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/١٧٧) والبخاري في كتاب الإيمان (١٥) ومسلم في كتاب الإيمان (٤٤).

قال جلّ وعلا: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ومعنى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بعقابه وعذابه إن أنتم أحببتم أحدَ هذه الأمور أكثر من محبتكم لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

كما يجب أنْ تحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم من محبتك لنفسك، ولا ترغب بنفسك عن نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: أن تقدّم نفسك على نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولا تحبّها أكثر من محبتك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

وهذا لأنه عليه الصلاة والسلام أرحم منك بنفسك، ويدلك على هذا أَنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يُؤتى بالرجل الميت عليه الدَّيْنُ، فيسأل: «هل ترك لِدَيْنِهِ من قضاء»؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاءً صلّى عليه، وإلاّ قال: «صلّوا على صاحبكم». فلمّا فتح الله عليه الفتوح قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فَمن توفّي وعليه دين فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته»[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٤٥٣) والبخاري في كتاب الكفالة (٢٢٩٨) ومسلم آخر كتاب الفرائض (١٦١٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وعلى هذا فهو صلى الله عليه وآله وسلم أحقّ بالمؤمنين من أنفسهم، وأنفع لأنفسهم من أنفسهم، فيجب أن يكونوا هم كذلك معه صلى الله عليه وآله وسلم، أي: أن يكون صلى الله عليه وآله وسلم أحب إليهم من أنفسهم.

*** سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو روح الوجود ونفسه الناطقة، ونسبته إلى هذا العالم كنسبة الروح إلى الجسد:**

اعلم أَنّ عماد بقاء هذا العالم هو نور التوحيد، فبقاء هذا العالم ووجوده متوقف على نور التوحيد لله تعالى، فبنور توحيد الله تعالى صَلُحَ العالم وثبت ووُجِد، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السماوات، وأشرقت له الظلمات، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة»[1].

وأنوار الوجه الكريم هي أنوار توحيده سبحانه، ولذلك فمتى ذهب نور التوحيد ونور الإيمان من هذا العالم خرب العالم حينئذٍ، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض: الله، الله»[2].

فما دام في العالم الأرضيّ رجل مؤمن فإن الساعة لا تقوم، لأنّ إيمان هذا المؤمن وتوحيده هو عمود العالم، لكن إذا تهدّمت الأعمدة ولم يبق عَمود منها خرب العالم. فما أمسك هذا العالم إلا توحيد الله والإيمان به، فإذا لم يبق على وجه الأرض من يقول: الله،

---

(١) طرف من دعاء الطائف رواه الطبراني، مجمع الزوائد (٦/٣٥) عن سيدنا عبد الله بن جعفر رضي الله عنه.

(٢) مسند الإمام أحمد (٣/١٠٧)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان (١٤٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

وارتفع الإيمان: قامت الساعة وخرب العالم ـ أي: زهقت روحه كما تزهق روح الجسم من الجسم ـ.

فروح هذا العالم هو نور توحيد الله والإيمان به، فانظر هنا وتفكّر في النور الإيماني: مِنْ أين أتاك؟

أليس عن واسطة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

وإن جميع الأنبياء الكرام قبله إنما أخذوا الإيمان عن مقام سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي سبقهم بالنبوة، إذاً هو الأصل في توحيد الله، وهو الأصل في نور الإيمان، وهو مهبط أسرار وأنوار الإيمان، وعنه تتنزل أنوار التوحيد في قلوب العالمين، فهو روح العالم عليه الصلاة والسلام.

ولذلك حُقَّ لهذه الروح أن تسبق في الوجود على الجسم، لأن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، كما في الحديث[١]: «خلقت الأرواح قبل الأجساد بألفي عام».

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» كما تقدم[٢].

واعلم أن كل فضيلة أو منقبة يَذكر الله تعالى أنّه مَنَّ بها على نبيّ من الأنبياء، فقد أعطاها ومنّ بها على رسوله سيدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم على وجه أعمّ وأشمل، ويدلّك على هذا قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والديلمي في الفردوس (٢٩٣٨).

(٢) ص (١٩٢).

فلقد قصّ الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من أخبار الرسل ومناقبهم، وما تفضّل به عليهم، ليُثَبِّتَ به فؤاده وقلبه الشريف، وليس المراد من القصص عليه الإزعاج والقلق، فلو لم يُعطَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جميع ما قصّ الله عليه مِنْ فضائل ومناقب المرسلين عليهم السلام لبقي صلى الله عليه وآله وسلم مضطرباً، لأنه قَص عليه فضلاً ومقاماً ما ناله ولم يتحقّق به، وهذا يُؤدي إلى الإزعاج والقلق، ولكن الله تعالى يقول: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم نال هذه المقامات والفضائل قبل أَنْ يَقُصّها الله تعالى عليه.

*** الحقيقة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم:**

قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾.

فمعنى هذه الآيات الظاهر ظاهر، ولكن فيها الإشارة الباطنة فقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ أشار بالشمس إلى الذات الواجب الوجود الذي به ظهرت الأشياء من ظُلمة عدمها؛ وهو الله تعالى. ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ أي: وضحى نُور ذاك الشمس، يُشير إلى أول موضع للتجلّيات الإلٓهية التي ظهرت فيها آثار تلك الأنوار الربانية، وهي الحقيقة المحمديّة.

ثم أشار إلى بقية العوالم الممكنة التي استفادت الوجود عن نور الشمس بقوله سبحانه: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي: موضع الاستفادة والأخذ.

وهذا يدلّ على أَنَّ أول المخلوقات هي الحقيقة المحمدية، ومن تلك الحقيقة خُلِقَتِ العوالم.

* * * * *

ثبوت الواسطة والوسيلة

واسطة الله العظمى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]

فقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم يزكّي النفوس، والمزكي على الحقيقة هو الله تعالى، لكنّه عليه الصلاة والسلام هو السبب الأعظم والواسطة الكبرى في تزكية الله تعالى للنفوس، وإلاّ فالمزكّي على الحقيقة هو الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

فبيّن سبحانه وتعالى أن التزكية الحقيقية الذاتيّة الاستقلالية هي إلى الله وحده، ولكنه سبحانه جَعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الواسطة العظمى في تزكية العباد.

وكم من أمور أضافها الله لنفسه، وأضافها لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، فمن ذلك:

الهداية : قال الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: ١٧٨] وقال جلّ وعلا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فبيّن أنه هو الهادي سبحانه وتعالى، ومع ذلك قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالهداية الحقيقية الذاتية الاستقلالية هي إلى الله تعالى، ولكن السبب الأعظم في هداية الله لعباده هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هنا تعلم أنّه صلى الله عليه وآله وسلم الواسطة الكبرى في هدي الله تعالى لعباده، والوسيلة العظمى في ذلك.

وهذا له نظائر كثيرة من الأفعال التي يُسندها ويضيفها سبحانه لنفسه؛ ويضيفها لخلقه، وكلّ له معنى:

- فإسناده تعالى الفعل لنفسه إنما هو على وجه الحقيقة والاستقلال.

- وإسناده الفعل إلى خَلقه إنما هو على معنى الوسيلة والواسطة.

*** فمن جملة ذلك التوفية:**

فَمَنِ الذي يَتوفّى الأرواح والنفوس على الحقيقة - أي: يقبضها - إنه الله تعالى الذي قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] ومع ذلك يبيّن الله تعالى أنّ هناك سبباً وواسطة ووسيلة في ذلك؛ وهو ملك الموت، قال سبحانه: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ [مريم: ١٩] يذكر هذا سبحانه عَمَّا وقع من خطاب جبريل عليه

السلام للسيدة مريم، والمعنى: أنا جبريل أهب لك غلاماً زكياً وهو: عيسى ابن مريم عليه السلام. وفي قراءة سبوعية متواترة[1]: ﴿لِيَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ أي: ليهب لك الذي أرسلني وهو ربك.

فالذي وهبها الغلام على الحقيقة بالذات والاستقلال هو الله تعالى، وجعل جبريل عليه السلام واسطة في الهبة.

فترى أنه تعالى أضاف الهبة للواسطة والوسيلة، قال تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ وفي قراءة ﴿لِيَهَبَ لَكِ﴾ أضافها سبحانه لنفسه على الحقيقة والذات والاستقلال.

ومن هنا تعلم أَنَّ الوسائل والوسائط والأسباب لا تنكر أبداً، لأن الله تعالى أثبتها، وَمَن أنكرها أنكر الموسوط والمسبّب.

*** ومن جملة ذلك الإحياء:**

فالذي يحيي النفوس على الحقيقة هو الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٤] ومع هذا أضاف الإحياء إلى العبد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

فالعبد يحيي ـ أي: يكون سبباً في حياة الجسم أو الروح أو القلب ـ لكن المحيي للجسم والروح والقلب على الحقيقة هو الله تعالى، وهو سبحانه نَصب أسباباً ووسائل وجعلها واسطة في ذلك.

*** ومن ذلك أيضاً الرزق:**

فالذي يرزق على الحقيقة إنما هو الله تعالى الذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) عند ورش، وأبي عمرو، ويعقوب.

هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] ومع ذلك قال الله تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٨].

فأضاف الرزق للعبد ـ أي: فارزقوهم أنتم أيها العباد لأولئك اليتامى والمساكين ـ فالعبد قد يرزق ـ أي: يكون واسطة في رزق الله لعباده ـ وهكذا...

فالنبي عليه الصلاة والسلام هو السبب الأعظم والواسطة العظمى في تزكية الله تعالى للنفوس، وفي هديه ورحمته سبحانه، وفي الخير الإلَهي الذي يتنزل من الله تعالى على خلقه، كل هذا بواسطته عليه الصلاة والسلام.

*** ومن جملة ذلك التدبير:**

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣١] فالذي يدبّر الأمور على وجه الحقيقة والذات والاستقلال والإحاطة والشمول إنما هو الله تعالى، ومع ذلك قال سبحانه: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

فأسند التدبير إلى خلقه من ملائكة وأرواح عالية طاهرة، فلهم تدبير بإذن الله تعالى وأمره.

*** ومن جملة ذلك أيضاً الشفاعة:**

فالشفاعة كلها ـ مُلكاً وإذناً ورضىً وتصرفاً ـ لله وحده جلّ عُلاه قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] وهذا على وجه الاستقلال والرضا والذات، ومع ذلك أثبت سبحانه أن هنالك شفعاء في الدنيا والآخرة، وأخبر أنهم شُفعاء، وعلى أنهم وسطاء في الشفاعة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فأثبت سبحانه أنّ للخلق شفاعة كالملائكة والأنبياء والأولياء.

قال جل وعلا: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وقال جلّ وعلا: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] فأثبت سبحانه الوساطة في الدنيا والآخرة. بل إنه سبحانه شرع الشفاعة فقال: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

فقد شرع الله الشفاعة في الدنيا، ومع ذلك فإن الشفاعة كلّها لله تعالى على وجه الاستقلال والذات، أما إذا أراد أن يُشفِّعَ بك مَن أراد فإنه يلهمه ويأذن له فيشفع لك، وإلا لا يُمكن أن يتقدّم شفيع من نفسه.

قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ أي: في طاعة الله تعالى، وفيها عون للمسلم على طاعة الله، قاصداً بذلك وجه الله تعالى ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.

﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ أي: في تعطيل حدّ من حدود الله، أو ضياع حقّ من حقوق الله تعالى مثلاً ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي: نصيب وافر.

وعلى هذا فإنّ الشفاعة لا تنكر أبداً، لأنه سبحانه أثبتها للشافعين على أنهم واسطة في ذلك.

واعلم أن باب الشفاعة إنما يُفتَح على يد سيّد الشُّفَعَاء وأعظمهم عند الله تعالى، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو الذي يفتح باب الشفاعة للأنبياء والأولياء والملائكة، فيشفعون لمن ارتضى.

وشفاعته صلى الله عليه وآله وسلم على مراتب: فهناك الشفاعة العظمى التي تَعمّ الخلائق كلها، إذ يُنقذهم من أهوال الموقف وشدائده، وهناك الشفاعات الخاصة، فمنها للمذنبين قبل أن يدخلوا النار، ومنها بعدما دخلوا النار، ومنها شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم لأهل الجنة بتَرْقِيَة درجاتهم وهكذا...

[وانظر أحاديث الشفاعة في موضعها بتفاصيلها في كتاب: «الإيمان بعوالم الآخرة» للشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه].

وممّا يدلّ على أنه عليه الصلاة والسلام هو واسطة الله العظمى، ووسيلته الكبرى؛ أنه سبحانه كثيراً ما يقرن الأمور ويُسندها سبحانه إليه وإلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فيضيفها إليه تعالى على معنى الحقيقة والاستقلال، ويضيفها إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم على معنى الواسطة والسبب.

فمن هذا: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤].

أما طاعتك لله تعالى فهي الطاعة الذاتية الاستقلالية، طاعة العبد لربه، وأما طاعتك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فهي طاعة لأنها وسيلة لطاعة الله تعالى، فلا تصح ولا تُتصور طاعتك لله تعالى إلاّ بطاعتك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه رسول الله وواسطة عنه، ومن هذا ما قاله سبحانه في الاستجابة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤] فلا يمكن أن تستجيب لله تعالى إلا عن طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا قرن سبحانه اسمه باسم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه ناطق عن الله تعالى، ولأنه رسول من الله، فاستجابتك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي استجابة لله تعالى.

*** ومن جملة ذلك المحبة:**

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] فلا يمكن أن تحبّ الله تعالى حقّاً إلا بحبّك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّه رسول الله وواسطة عنه، وسفير عنه سبحانه.

ومعنى أنه سفير عن الله: قال سبحانه: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ والسفرة جمع: سافر وسفير، وهما بمعنى واحد وهو: الواسطة بين شيئين: والمراد من الآية ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ قال بعضهم: الملائكة سفراء بين الله تعالى وخلقه. وقال بعضهم: هم الأنبياء لأنهم واسطة بين الله تعالى وبين خلقه.

ولا شك أنه صلى الله عليه وآله وسلم أعظم السفراء عن الله تعالى، وأعظم من ينطق عن الله تعالى.

*** ومن جملة ذلك أيضاً إرضاء الله ورسولِهِ:**

فإن كنت تبتغي مرضاة الله تعالى فلا يصح لك ذلك إلا عن طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتسترضي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتحصل على رضوان الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

*** ومن ذلك الإرادة:**

فلا يصح لك أن تريد الله تعالى دون أن تريد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فلا يمكن أن تكون مريداً لله تعالى إلا أن تريد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال جلّ وعلا: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

وكذلك في الولاء والموالاة: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: ٥٥].

وفي النصرة: فلا يصحّ لك أَن تنصر الله تعالى إلاّ بنصر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر: ٨].

وكذلك من تبرّأ الله منه تبرأ منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن تبرّأ منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تبرأ منه الله تعالى، ومن تأدب مع الله تأدب مع رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم، ومن أساء الأدب مع الله أساء الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال جلّ وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

ومن حارب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد حارب الله تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ ...﴾ الآية [المائدة: ٣٣].

وكذلك في التذلّل والتخضّع: قال الله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٣١] فيجب عليك أن تقنت لله وتقنت لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فقنوتك لله تعالى قُنوت عبد لرب، وقنوتك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أدب وذلّ وتخشّع؛ لأنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا تجد أن الله تعالى في كثير من الأمور قرن اسم رسوله باسمه، حتى يُبيّن لك أنه لا صلة لك بربك، ولا يمكنك أن تتقرب إليه سبحانه إلا عن طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فواسطته صلى الله عليه وآله وسلم لا تنكر، وهذه الحقوق ثابتة له عليه الصلاة والسلام في حياته وبعد انتقاله إلى الله تعالى.

* * * * *

الأنبياء أحياء في قبورهم
وأعظمهم حياة هو
سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

اعلم أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله إلى الله تعالى هو حيّ بحياة برزخية أقوى بكثير من الحياة الدنيوية، وذلك من وجوه متعددة:

أولاً: لقد أخبر الله تعالى عن الشهداء بأنهم أحياء، ونهى سبحانه أن نقول عنهم: أموات، أو نظن ونعتقد أنهم أموات فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ الآيات [آل عمران: ١٦٩].

فكون المرء لا يشعر بحياة الشهيد لا يلزم منه أنه غير حيّ، لأنه في عالم آخر. ولا شكّ أن الأنبياء أعظم من الشهداء، فهم أحياء بحياة برزخية أقوى من هذه الحياة الدنيوية.

والتحقيق أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نال مرتبة الشهادة.

ولقد أعطى أهل العقل والإيمان والكمال لهذه الحياة حكمها ـ أي: حياة الشهداء ـ.

ومن هذا ما نقله أهل المغازي والسير أن السيدة عائشة رضي الله عنها، عندما أصيب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأرسل إليها يستأذنها أن يُدفَن في حجرتها مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسيدنا أبي بكر رضي الله عنه أذنت له، لكنّها بيّنت له أنها كانت ترغب أن يكون هذا المكان لَها، ولكنها تُؤثره على نفسها[1].

فلمّا دفن في حجرتها التي كانت تقيم بها جعلت تضع الحجاب دائماً، لأنها كانت في حجرتها ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زوجها، وأبو بكر رضي الله عنه والدها، أما عمر رضي الله عنه فأجنبي عنها، وقد مات شهيداً، فراعت رضي الله عنها حياة الشهداء وراحت تحتجب في حجرتها[2].

وعلى هذا فإنه سبحانه نهى أن نعتقد أن الشهداء أموات ـ بمعنى أنهم لا يشعرون ولا يبصرون ولا يدركون ـ والأنبياء أعظم مقاماً عند الله تعالى، فهم من باب أولى أحياء بحياة أقوى من حياة الشهداء، فلا يصح أيضاً أن نقول عنهم: أموات، أو نعتقد فيهم ذلك، وأعظم الأنبياء حياة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) ينظر صحيح البخاري آخر كتاب الجنائز (١٣٩٢).

(٢) ينظر طبقات ابن سعد (٣/٣٦٤) وفتح الباري (٧/٦٦) والمسند (٢٤٤٨٠) والمستدرك (٤/٧).

أما أن تقول : قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

فهذا معناه : مفارقة الروح البدن وهو الموت ـ أي: الانتقال إلى عالم آخر ـ بمفارقة الروح البدن، وليس فيه معنى انقطاع الإدراكات والإِحساسات عنه عليه الصلاة والسلام.

ثانياً : ما يدل على أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم حيّ، أنه عليه الصلاة والسلام شاهد الأنبياء عليهم السلام ليلة المعراج وصلّى بهم إماماً، فهم عليهم السلام أحياء، وإلا كيف يؤمّهم وهم غير أحياء؟!!

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم أخبر أنه رأى موسى عليه السلام، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره»[1] فهذا يدلّ على أن سيدنا موسى عليه السلام لم ينقطع بموته عن الطاعة والصلاة. أي: عن الإدراكات والإِحساسات.

وعن أنس رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»[2] ويشهد لهذا الحديث السابق الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، وهذا يدلّ على أنه صلى

---

(١) كما في صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب من فضائل سيدنا موسى عليه السلام (٢٣٧٥) وسنن النسائي كتاب قيام الليل وتطوّع النهار (٣/ ٢١٥).

(٢) قال في مجمع الزوائد (٨/ ٢١١): رواه أبو يعلى والبزار، ورجال أبي يعلى ثقاة. ورواه البيهقي في كتابه: حياة الأنبياء في قبورهم.

الله عليه وآله وسلم في قبره يُصلي، كما أن موسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام يصلّون، لكن في عالم آخر هو البرزخ.

ومن هذا ما رواه الدارمي في سننه ـ وهي من أصحّ السنن، حتى قال بعض المحدثين إنها أصح من سنن ابن ماجه ـ قال: لمّا كان أيام الحرة ـ أي: الحرب والفتنة التي وقعت بين المسلمين ـ لم يُؤذَّن في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثاً ولم يُقَم، ولم يبرح سعيد بن المسيب من المسجد، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1].

وفي رواية عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال: لقد رأيتني ليالي الحرة وما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غيري، وما يأتي وقت صلاة إلاّ سمعت الأذان من القبر، ثم أتقدّم فأقيم وأصلّي[2].

ثالثاً: جاء في الأحاديث الشريفة أن أعمالنا وصلاتنا على النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم تُعرض عليه، فهل تعرض على من لا حياة فيه؟!!

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة، فإنه مشهود تشهده الملائكة، وإنّ أحداً لن يصلِّي عليّ إلا عرضت عليّ صلاته حتى يفرغ منها».

---

(١) سنن الدارمي في المقدمة.

(٢) كما في دلائل النبوة لأبي نعيم.

قال: قلت: وبعد الموت؟!

فقال: «وبعد الموت، إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فنبي الله حيّ يرزق»[1].

وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلِقَ آدم وفيه قبض، وفيه النفخة وفيه الصعقة؛ فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإنَّ صلاتكم معروضة عليّ».

قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرَمْتَ. يقولون: بَلِيْتَ.

فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[2].

وكذلك تُعرض الأعمال على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

ففي الحديث الذي رواه البزّار بإسناد جيّد ـ وشهد بذلك الحافظ العراقي وغيره من المحدثين ـ ورواه ابن سعد في طبقاته، وقد بلغ هذا الحديث مرتبة الحسن لكثرة رواياته في البيهقي وغيره[3] عن ابن

---

(١) سنن ابن ماجه آخر كتاب الجنائز (١٦٣٧).

(٢) الحديث في المسند (٤/ ٨) وسنن أبي داود في كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب الجمعة (١٠٤٧) وابن ماجه (١٠٨٥) وابن حبان (٩٠٧) والحاكم (١/ ٢٧٨).

(٣) مجمع الزوائد (٩/ ٢٤) وطرح التثريب (٣/ ٢٩٧) وطبقات ابن سعد (٢/ ١٩٤).

مسعود رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «حياتي خير لكم تُحدِثون ويُحدَث لكم، ووفاتي خير لكم تُعرض عليّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم».

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «حياتي خير لكم» وجه ذلك قال: «تُحْدِثُون ويُحدَثُ لكم» أي: تُحدِثُونَ أعمالاً وأقوالاً، وتَنزل أحكام شرعية تبيّن الجائز من المنهيّ، والحلال من الحرام.

«ووفاتي خير لكم تعرض عليّ أعمالكم» فبيّن صلى الله عليه وآله وسلم وجه الخير الذي يأتي بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وهو عرض الأعمال عليه صلى الله عليه وآله وسلم، فوفاته صلى الله عليه وآله وسلم فيها خيرٌ أيضاً، ولم يَحرم أمّته من خيره عليه الصلاة والسلام.

وهل يمكن أن تُعرض هذه الأعمال على غير حيّ؟!!!

بل هو صلى الله عليه وآله وسلم حيّ بحياة برزخية أقوى من حياة الدنيا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

❖ **المحاضرة العاشرة:**

تأثر الأموات بما يَرِدُ إليهم من أعمال الأحياء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أمّا بعد:

اِعلم أنه مَنْ مات لا ينقطع عنه الشعور والإحساس، ويسمع الكلام الموجّه إليه، وقد يُورث عنده هذا الكلام فرحاً، وقد يؤثّر عليه ويغضبه ويزعجه، والأدلة على ذلك كثيرة من القرآن والسنة.

فمنها قوله تعالى مخبراً عن سَيدنا صالح عليه السلام بعد أن أهلك الله تعالى قومه وهم ثمود: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

فقد جرت عادة الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ بعد أن ينتقم الله تعالى من أعدائهم ويُهلكهم بنوع من العذاب، أن يذهب رسولهم إلى موضع هلاكهم ويُخاطبهم بكلام فيه توبيخ وتعنيف، ليزيدهم حسرة

وألماً. فقد راح إليهم سيدنا صالح عليه السلام وخاطبهم بذلك، أفَتُراه يخاطب من لا يسمع؟!

ولو لم يكن في الكلام فائدة وأنهم يسمعونه لَمَا كلمهم.

وهذا كما قال الله تعالى في سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وقد فعل ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأعدائه يوم بدر: كما جاء في الصحيحين[1] أنه لما قُتِلَ من المشركين صَنَادِيدُهُم، أمر عليه الصلاة والسلام أن يُطرح منهم أربعاً وعشرين في بئر هناك، وبعد أن مضى عليهم ثلاث ليال، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أصحابه، ووقف على حافة البئر، وجعل ينادي هؤلاء الصناديد بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة وهكذا.. واحداً واحداً، ثم قال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» أي: من النصر والتأييد.

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كيف تكلّم أجساداً لا أرواح لها؟

وفي رواية: كيف تخاطب قوماً قد جيَّفوا؟ ـ أي: صاروا جيفاً ـ.

---

(١) البخاري في كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل (٣٩٧٦) ومسلم في آخر كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٥) عن سيدنا أبي طلحة رضي الله عنه. ويُنظر في المسند (٣/١٠٤ و١٨٢ و٢٦٣ و٢٨٧).

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده ـ وفي رواية: «والذي نفس محمد بيده» ـ ما أنتم بأسمع لِمَا أقول منهم».

وفي رواية: «ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا» أي: بل هم يسمعون أقوى منكم ولكن لا يجيبون، لأنهم في برزخ أخروي، ولا يؤذن لهم فيعتذرون، كما قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥ـ٣٦].

فلهم حكم الآخرة.. فهؤلاء الكفار هم يسمعون ويشعرون، فما بالك بالمؤمنين؟ فلا شك أنهم يسمعون.

ومن هذا ما ذكره الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه[١] قال: باب: الميت يَسمع خفق النعال لمّا يدفن ويتولّى عنه أصحابه... وأسند الحديث.

كما أنهم يَسمعون التسليم لَمّا يُسلَّم عليهم، ويرون الزائر لهم، ولهذا شرع صلى الله عليه وآله وسلم زيارة القبور والسلام على أهلها، والدعاء لهم، والاستغفار لهم[٢]، ولولا انتفاع الميّت وحصول الأنس له من دعاء واستغفار الحيّ ما شرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زيارة الأموات، ولكنّه عليه الصلاة والسلام ندب إلى ذلك، وبيّن أنّ الميت ينتفع بسلام ودعاء واستغفار الحيّ وهكذا...

ومن هذا أنه صلى الله عليه وآله وسلم زار أهل البقيع بنفسه:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) في كتاب الجنائز حديث رقم (١٣٣٨).

(٢) ينظر الترغيب للحافظ المنذري والأذكار للإمام النووي رضي الله عنهم.

وسلم خرج إلى المقبرة ـ أي: بقيع الغرقد ـ فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» ثم قال لأصحابه حوله: «وددت أنَّا قد رأينا إخواننا».

فقالوا: يا رسول الله ألسنا إخوانك؟.

قال: «بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بَعْدُ، وأنا فرطهم على الحوض» أي: سابقهم ومنتظرهم.

فقالوا: يا رسول الله كيف تعرف مَنْ يأتي بعدك من أمتك؟

قال: «أرأيت لو كان لرجل خيل غرّ محجّلة ـ أي: في جبهتها وقوائمها الأربعة بياض ـ في خيل دُهم بُهم ألا يعرف خيله»؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «فإنهم يأتون يوم القيامة غراً محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض»[1].

فبيّن عليه الصلاة والسلام كيف تكون التحيّة للأموات والسلام عليهم، كما بيّن مَنْ هُم إخوانه الذين عقد معهم فضلاً وتكرّماً منه عليه الصلاة والسلام، عقد معهم أخوة الإيمان، وهم التابعون وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «بل أنتم أصحابي» أي: إخواني وأصحابي، وهناك قسم من أتباعي ما نالوا رتبة الصحبة، فهم إخوانه فقط عليه الصلاة والسلام.

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ، في كتاب جامع الوضوء (٥٧) ـ واللفظ له ـ ومسلم في كتاب الطهارة باب /١٢/ (٢٤٩)، والنسائي في كتاب الطهارة، باب حلية الوضوء (١/٩٣).

ويُفهم من الحديث وجوب محبة رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه أحبّ رؤية من اتّبعه عليه الصلاة والسلام.

وهل حصلت هذه المودة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!

نعم. لقد حقّق الله تعالى الودّ لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في عالم المثال، وتمثلت له أمته كلهم، ورآهم عياناً، تحقيقاً لِمَا ودّه وأحبّه عليه الصلاة والسلام.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عُرِضَتْ عليّ الأمم، فجعل النبي والنبيَّان يمرون معهم الرهط ـ أي: الجماعة ـ والنبي ليس معه أحد، حتى رُفع لي سواد عظيم ـ أي: قوم كثيرون ـ قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: بل هذا موسى وقومه، قيل: انظر إلى الأفق فإذا سواد يملأ الأفق، ثم قيل لي: انظر هاهنا وهاهنا في آفاق السماء؛ فإذا سواد قد ملأ الأفق ـ أي: الأطراف ـ قيل: هذه أمتك. ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب».

ثم دخل صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبيّن لهم، فأفاض القوم وقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله فنحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام؛ فإنا ولدنا في الجاهلية، فبلغ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فخرج فقال: «هم الذين لا يَسْتَرْقُون ـ وفي رواية لمسلم: «ولا يرقون» ـ ولا يتطيَّرون، ولا يكتَوُون، وعلى ربهم يتوكلون».

فقام عكاشة بن محصن فقال: أَمِنْهُمْ أنا يا رسول الله؟ قال: «نعم».

فقام آخر فقال: أَمِنْهُمْ أنا؟ فقال: «سبقك بها عكاشة»[1] ـ يعني يجب أن تكون همتك دائماً عالية للمقصد الأسمى، ولا تكن همتك تابعة للغير.

وهكذا رأى صلى الله عليه وآله وسلم أمته، وقد تمثّلوا له مرة في الماء والطين ورآهم:

فعن حذيفة بن أُسَيْد رضي الله عنه، أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «عُرِضَتْ عليّ أمتي لدى هذه الحجرة، حتى لأنا أعرف بالرجل منهم من أحدكم بصاحبه؛ صُوِّروا لي في الطين»[2].

وروى مسلم في صحيحه، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أنه لما احتضر أوصى ابنه فقال: (إذا أنا متّ فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنّوا عليّ التراب شنّاً ـ أي: صبّوه صبّاً ـ ثم أقيموا حول قبري قدر ما تُنحر جزور ويقسم لحمها؛ حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي)[3].

أي: أعرف كيف أجيب الملائكة لمّا تنزل.

ولولا أن هذا الصحابي الكريم واقِفٌ على أحاديث واردة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في هذه السياقات لَمَا أوصى بهذه الوصيّة.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطب، باب من اكتوى (٥٧٠٥) ومسلم في كتاب الإيمان (٣٧٤).

(٢) عزاه في الفتح الكبير إلى الطبراني في المعجم الكبير، والضياء في المختارة.

(٣) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٤/١٩٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله (١٢١).

وهذا يدلّ على شعور واستئناس الميت بزيارة الأحياء بالدعاء والقراءة على قبره.

وقد روى البيهقي في السنن[1]، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يأمر بقراءة الفاتحة وخواتيم البقرة على الميت.

وقد روي هذا في بعض الطرق مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا يدلّ على وصول وانتفاع الميت بثواب قراءة القرآن الكريم وإهدائها له.

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا وضع الميت في قبره كان يقف على القبر، ويقول لمن حوله من الصحابة: «استغفروا لأخيكم، وسلوا له بالتثبيت؛ فإنه الآن يُسأل»[2].

وقد نقل الإمام النووي رضي الله عنه عن المروزي بإسناده، عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال: من دخل المقبرة وقرأ الفاتحة و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَــدٌ﴾ والمعوذتين ثم أهدى ثوابها لأهل المقبرة وصل ذلك إليهم.

فهذا نصّ عن الإمام أحمد بأن ثواب القراءة يصل للأموات، وكفى به حجة، ولولا أنه ثبت عنده من الأدلة ما يكفي ويدلّ على ذلك لَمَا قاله.

---

(١) ينظر السنن الكبرى له (٤/٥٦).

(٢) كما في سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت (٣٢٢١)، وسنن البيهقي (٤/٥٦).

وعن أبي أُسَيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال: بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله هل بقي مِن بر أبويّ شيء أبرّهما به بعد موتهما؟

قال: «نعم. الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما مِنْ بعدهما، وصلة الرّحم التي لا توصل إلاّ بهما، وإكرام صديقهما»[1].

فهذا العمل يصل نفعه إلى الأبوين، ويرضيان عن صاحبه.

ومما يدلّ على ذلك ما قاله الإمام البخاري رضي الله عنه في صحيحه[2]: باب عذاب القبر من الغيبة والبول.

ثم أسند عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قبرين فقال: إنّهما ليعذّبان، وما يعذبان في كبير» ثم قال: «بلى. أما أحدهما فكان يَسعى بالنميمة، وأما أحدهما فكان لا يستتر من بوله».

قال: ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عُوداً رَطْباً فكسره باثنتين، ثم غرز كل واحد منهما على قبر، ثم قال: «لعله يخفّف عنهما ما لم ييبسا».

فقد وضع عليه الصلاة والسلام غصناً أخضر على كل قبر، ورجا بذلك أن يُخفّف الله عنهما، ورجاؤه صادق عليه الصلاة والسلام، فماذا يفيد الغصن الأخضر لهذا الميت.

---

(١) كما في المسند (٣/٤٩٧) وسنن أبي داود في كتاب الأدب (٥١٤٢) وابن ماجه (٣٦٦٤) وابن حبان (٤١٩).

(٢) في كتاب الجنائز (١٣٧٨) وهو عند مسلم (٢٩٢) وغيرهما.

هذا الغصن الأخضر فيه حياة النموّ، فهو يُسبِّح الله تعالى، فعند وضعه فوق قبر المعذَّب تنزل خيرات وبركات التسبيح على هذا القبر، فيخفف الله على صاحبه الألم والعذاب.

فانظر هنا إلى أن التسبيح للغصن الأخضر قد انتفع به الميت!! إذن ألا تنفعه قراءة إنسان مؤمن على قبره؟! فهذا من باب أولى.

وقد يتساءل إنسان: لِمَ لَمْ يستغفر أو يدعو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لصاحبي هذين القبرين، بل وضع على قبرهما غصناً أخضر؟

فاعلم أَن أفعاله عليه الصلاة والسلام ما هي إلا بوحي وأمر من الله تعالى، وهنا لَمْ يؤمر صلى الله عليه وآله وسلم أن يستغفر بالكلام؛ أو يقرأ القرآن الكريم على هذين القبرين في هذا الوقت ولكن في غير هذه المرة، وغير هؤلاء أُمِر صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو للمقبورين، فدعا لهم: كما في الحديث[1] أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لأبي مويهبة ـ مولى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «إني قد أُمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانْطَلِقْ معي» فلمّا وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر» ثم استغفر صلى الله عليه وآله وسلم لأهل البقيع، ثم انصرفَ صلى الله عليه وآله وسلم.

فهنا أمره الله تعالى أن يستغفر لأهل البقيع، ولمّا مرّ صلى الله

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٤٨٩) والدارمي في المقدمة.

عليه وآله وسلم على هذين القبرين أمره الله تعالى أن يضع عليهما الغصن الأخضر، ولم يأمره بالاستغفار لهما، وفي هذا أيضاً تعليم وتشريع للأمة.

ولقد شرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السلام على الأموات وزيارتهم، وهو أن يُقال كما ورد: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين»[١] واعتَبَرَ ذلك تحيّة لهم، فهم يَسمعون التحية ويحيّونَ، ولولا أنهم يسمعونها ما أمر صلى الله عليه وآله وسلم بتحيتهم[٢].

وممّا يدل على أن القراءة على الميت تنفعه وتصله، وتُنزل البركة والنور عليه، ما جاء في الأثر الذي رواه أبو بكر الخلاّلِ بإسناده[٣]، عن علي بن موسى الحداد قال: كنت مع أحمد بن حنبل ومحمد بن قُدامة الجوهري في جنازة، فلمّا دُفن الميت جلس رجل

---

(١) طرف من حديث رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب استحباب اطالة الغرة والتحجيل في الوضوء (٢٤٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) عن جابر بن سليم قال: رأيت رجلاً يَصدر الناس عن رأيه، لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه، قلت: مَن هذا؟ قالوا: هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قلت: عليك السلام يا رسول الله ـ مرتين ـ.
قال: «لا تقل عليك السلام، فإنّ عليك السلام تحية الميت، قل: السلام عليك».
قال: قلت: أنت رسول الله؟ قال: «أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضرّ فدعوته كشفه عنك، وإذا أصابك عامٌ سنةً فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض فقراء أو فلاة فَضَلّتْ راحلتك فدعوته ردّها عليك» رواه الإمام أبو داود في سننه في كتاب اللباس، باب ما جاء في إسبال الإزار (٤٠٨٤).

(٣) في كتابيه: القراءة عند القبور، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ضرير يقرأ عند القبر، فقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه للرجل: يا هذا إن القراءة عند القبر بِدعة.

فلمّا خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله ما تقول في مُبشّر الحلبي؟ ـ أحد رواة الحديث ـ قال: إنه ثقة.

قال: كتبتَ عنه شيئاً؟ قال: نعم.

قال: حدثني مُبشر، عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللَّجْلاَج، عن أبيه أنه أوصى ـ أي: أوصى ابنه ـ إذا دفن أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها، وقال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يوصي بذلك، فقال له أحمد بن حنبل، فارجع فقل للرجل يقرأ.

ففي المرة الأولى لم يكن قد ثبت عند الإمام أحمد نصّ في هذا، ولمّا عثر على دَليلٍ رواته ثقات سَلَّم به.

وقد قال الإمام الشعبي ـ أحد التابعين ـ رضي الله عنه: (كان الأنصار إذا مات لهم ميّت اختلفوا إلى قبره ـ أي: تردّدوا كثيراً إلى قبره ـ يقرؤون عنده القرآن)[1].

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اقرؤوا ﴿يسٓ﴾ على موتاكم»[2].

---

(١) القراءة عند القبور والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأبي بكر الخلاّل.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٢٦ ـ ٢٧) وأبو داود في كتاب الجنائز (٣١٢١) واللفظ له، وابن ماجه (١٤٤٨) والحاكم (١/٥٦٥).

* الأعمال التكليفية الأخروية:

جاء في الحديث الذي رواه مسلم[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

وقد يقول إنسان: كيف وردت الأحاديث بحياة الأنبياء عليهم السلام، وأنهم أحياء في قبورهم، وأعظمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ورد أيضاً: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله»؟

فاعلم أن المراد من قوله عليه الصلاة والسلام: «انقطع عمله» أي: العمل التكليفي الدنيوي، ولابدّ من هذا القيد لئلا تتضارب الأحاديث الصحيحة مع بعضها، والأدلة على ذلك كثيرة منها: الأحاديث الواردة في أن العمل والتكليف لا ينقطع بعد الموت، لكن في عالم آخر غير عالم الدنيا، فلا ينقطع العمل في البرزخ، ولا في المحشر، ولا على الصراط، ولا حتى في الجنة.

وأول تكليف يكلّف به الإنسان في عالم القبر هو: الجواب عن الإيمان والتوحيد عند سؤال الملكين.

ثم هناك تكليف في الموقف وعالم الحشر، فمنه التكليف العملي، والتكليف العلمي الاعتقادي.

فمن التكليف العملي: يُكلّفُ أهلُ الموقف كلهم أنْ يسجدوا لله

---

(١) في آخر كتاب الوصية (١٦٣١).

تعالى، فالكفّار لا يستطيعون السجود لأنهم ما سجدوا لله في الدنيا وهذا كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢] وأما مَنْ كان يسجد لله تعالى حقّاً وصدقاً فيوفّق للسجود لله تعالى في ذلك الموقف.

وفي الحديث: «ويبقى كل مَنْ كان يَسْجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»[1].

ثم هناك التكليف الاعتقادي العلمي، وهذا من أشقّ التكاليف، وهو آخر امتحانات أهل المحشر في العقيدة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟

قال: «هل تُضارّون في القمر ليلة البدر»؟

قالوا: لا يا رسول الله.

قال: «فهل تُضارون في الشمس ليس دونها سحاب»؟

قالوا: لا يا رسول الله.

قال: «فإنكم ترونه كذلك» أي: بدون مَشقة أو ازدحام، بل يتجلّى سبحانه بالرؤية للكل. وفي هذا إشارة لطيفة وهي: أنه إذا خلا وانجلى عن قلبك سُحب الأغيار انجلى لك نور الله تعالى، ولا يَمنع القلب من شهود جمال الله سبحانه إلا السحب.

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن (٤٩١٩) عن سيدنا أبي سعيد رضي الله عنه.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: مَنْ كان يعبد شيئاً فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمسَ الشمسَ، ويتبع من كان يعبد القمرَ القمرَ، ويتبع من كان يعبد الطواغيتَ الطواغيتَ ـ فكل عابد يتبع معبوده ـ وتبقى هذه الأمة ـ وهي الأمة الموحدة ـ فيها منافقوها، فيأتيهم الله تبارك وتعالى ـ وفي رواية[1]: «في غير الصورة التي يعرفون» ـ فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربّنا، فإذا جاء ربنا عرفناه. فيأتيهم الله في صورته ـ أي: صفته ـ التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا»[2].

وهذا الامتحان يكون علامة الموحد ظاهراً وباطناً، وللأمة الموحدة ظاهراً لا باطناً وهم المنافقون.

فيتجلى الله بالتجلّي الصوري ـ أي: بصورة العقائد الإيمانية ـ وهذا التجلّي الصوري غير التجلّي الذاتي الذي يكون في الجنة، وغير التجلّي الصفاتي. فيتجلى سبحانه بصورة الاعتقاد القلبي، فإذا كان الإنسان يعتقد أن لله تعالى المثل الأعلى و أنه المنزّه عن الشبيه والمثيل نجا؛ وإلا هلك.

ففي التجلّي الأول يقول الله تعالى: «أنا ربكم» فالمؤمنون الصادقون يعلمون أن لله تعالى المثل الأعلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾.

---

(١) عند مسلم (١٨٢).

(٢) طرف من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الأذان، باب فضل السجود (٨٠٦) وينظر في كتاب التوحيد (٧٤٣٧) ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

فيرون أن هذا مظهر غير ما يعتقدون، فيقولون: «لست ربنا» وأما المنافق فيقول: أنت ربنا.

فلما يتجلّى سبحانه ثانياً بصورة العقائد الموافقة لعقائدهم الصحيحة، فيقولون: «أنت ربنا».

ففي هذا الامتحان ينقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: ١ـ فرقة منافقة. ٢ـ وفرقة مؤمنة صادقة. ٣ـ وفرقة مؤمنة عارفة بالله تعالى.

فأما المنافقون الذين لم يُعطوا لله تعالى المثل الأعلى، ولم يتحققوا بصدق الإيمان، فيقولون في التجلّي الأول: أنت ربنا، وينكرون في التجلّي الثاني.

وأما المؤمنون فينكرون في التجلّي الأول، لأنه لا يتفق مع المثل الأعلى والإيمان الصحيح، وذلك فيما يرون ويعلمون، ويقرّون وَيَثبتون في التجلّي الثاني.

وهناك المؤمنون العارفون عرفوا أن المتجلّي في الأول والثاني هو الله تعالى، لكنهم في التجلّي الأول سكتوا أدباً مع الله تعالى؛ لأنهم علموا أن الله تعالى يريد تمييز الخبيث من الطيب، أما في التجلّي الثاني فقالوا مع المؤمنين: أنت ربنا. وهكذا شأن العارف أَنْ يراعي أحكام التجلّيات الإلّهية، ويتأدب معها.

فهذا آخر الامتحانات، إذ يمتحن الله سبحانه الإيمان في القلب بالتجلّي الصوري، وهو التجلي بصورة العقائد الإيمانية.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته».

ومما يدل أيضاً على أنّ العمل لا ينقطع بالموت، بل تَنقلب الطاعات والقربات إلى كَلَفٍ بغير تكلّف ـ أي: إلى ولع بغير مشقة فيتنعم المؤمن بطاعته وعبادته لله تعالى، ويتلذّذ بذلك؛ ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أهل الجنة: «يُلْهَمُونَ التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس»[١].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتّل كما كنت ترتّل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[٢]. وهكذا فلم ينقطع عمل أهل الجنة.

وقد ذكر سبحانه عن المؤمنين أنّهم يَدعونه حين يمرون على الصراط فلم ينقطعوا عن دعائه، ولولا أنّه سبحانه يُجيبهم لَمَا ألهمهم الدعاء، قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أي: وهم يمرون على الصراط ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

* * * * *

(١) طرف من حديث رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب من صفات الجنة وأهلها (٢٨٣٥) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٢) المسند (٢/١٩٢) وسنن أبي داود في كتاب الصلاة (١٤٦٤) وغيرهما.

التوسل

بالإيمان ـ بالعمل الصالح ـ بالجاه ـ بالذات بالحق الذي حقّه سبحانه على نفسه لأنبيائه والصالحين من عباده

قال الله تعالى إخباراً عن أحبابه وأوليائه :

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

فقد توسلوا بإيمانهم إلى الله تعالى أن يغفر لهم.

أمّا التوسّل بالعمل الصالح : فقد ورد في حديث عن الثلاثة الذين دخلوا الغار وانطبق عليهم بصخرة كبيرة، فتوسّل كلّ منهم بعمل صالح له، حتى فرّج الله عنهم، وأزاح الصخرة، فخرجوا من الغار[1].

وأما التوسل بجاه مَنْ له جاه عند الله تعالى : فقد أخبر الله تعالى أن هناك من عباده من له الجاه العظيم عنده، فقال تعالى في سيدنا

---

(١) الحديث في صحيح البخاري كتاب البيوع، بابٌ إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه (٢٢١٥)، وصحيح مسلم آخر كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٤٣) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

موسى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] أي: له الوجاهة عند الله تعالى.

وقال سبحانه في سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٢٥] فهو من الوجهاء عند الله تعالى.

ولا شك أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو أعظم جاهاً عند الله تعالى: فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده لو أنّ موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»[(١)].

ومن هنا يُفْهم ويستدل ويجوز أن تقول: أسألك بجاه نبيك عندك، لأنه سبحانه أخبر أنّ هناك من له الجاه عنده، فيجوز أن تتوسل إلى الله تعالى بهذا الجاه الذي أعطاه هو سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما التوسل بالذات: فلقد أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جواز ذلك، وقد عرفوا مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حسب ما يليق بهم، ولذلك ثبت عنهم أنهم كانوا يستشفون ويتبركون بآثاره وأجزائه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن ذلك: التبرك بشعره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم:

عن أنس رضي الله عنه قال: (رأيت رسول الله صلى الله عليه

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٣٨٧).

وآله وسلم والحلاق يحلقه، وأطاف به أصحابه، فما يُريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل)[1].

وجاء في حديث صلح الحديبية: ثم إن عروة بن مسعود ـ الذي جاء وقتئذ وسيطاً عن المشركين في مكة ـ جعل يرمُق النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعينيه، قال: فوالله ما تنخّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم ـ أي: الصحابة ـ فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ـ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ بأمر ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضُوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له صلى الله عليه وآله وسلم.

فرجع عروة بن مسعود إلى أصحابه ـ في مكة ـ فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ـ أي: ما رأيت ـ مَلِكاً قط يُعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً[2] صلى الله عليه وآله وسلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلّى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فلا يأتونه بإناء إلا غمس يده فيها، فربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده

---

(١) كما في المسند (٣/١٣٣ و١٣٧) وصحيح مسلم كتاب الفضائل، باب قرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الناس (٢٣٢٥).

(٢) طرف من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٢٧٣١ و ٢٧٣٢).

فيها[1]. فكانوا يتبركون بذلك الماء ويستشفون به.

فماذا قصد الصحابة حينما أخذوا تلك الشعرة الشريفة أو النخامة الطاهرة؟ لقد قصدوا في ذلك طلب الشفاء من الله تعالى والعافية، والرحمة والبركة بفضل أثر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند الله تعالى.

هذا حقيقَةُ وتحليلُ ما فعلوه، وهذا هو حقيقة التوسل، وهو أن نطلب الأمر من الله تعالى بفضل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا يدلّ على إجماع الصحابة الكرام رضي الله عنهم على جواز التوسّل بأجزاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الشريفة، من شعره ولباسه ونعله وهكذا...

فكيف لا يجوز أن تَتَوسل بكليّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا جاز التوسل ببعض أجزائه الطاهرة صلى الله عليه وآله وسلم؟!!!.

فإذا جاز أن تقول: اللهم إني أسألك بفضل هذه الشعرة الشريفة عندك، ألا يجوز أن تقول: اللهم إني أسألك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفضله عندك؟! فهذا جائز من باب أولى.

وفي الحديث عن عثمان بن حُنَيْف رضي الله عنه، أنّ رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ادع الله أن يعافيني.

---

(١) كما في المسند (١٣٧/٣) وصحيح مسلم كتاب الفضائل، باب قرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الناس (٢٣٢٤).

فقال: «إن شئتَ دعوتُ لك، وإن شئتَ أخرتُ ذاك فهو خير».

فقال: ادعه. فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، فيصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجّه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهم شفّعه فيّ»[1].

وفي رواية[2]: فدعا بهذا الدعاء فقام وقد أبصر.

وهذا سيدنا عمر رضي الله عنه يسأل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يُمَتِّعَ المؤمنين بعامر بن الأكوع[3] رضي الله عنه.

جاء في الصحيحين[4] عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى خيبر، فَسِرْنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تُسمعنا من هُنيهاتك؟ ـ وكان عامر رجلاً شاعراً ـ فنزل يحدو بالقوم ـ وذكر شعره ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ هذا السائق»؟ قالوا: عامر بن الأكوع. قال: «يرحمه الله» قال رجل من القوم ـ وهو سيدنا عمر كما بينته رواية مسلم ولفظه: فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له: يا نبي الله لولا أمتعتنا بعامر ـ: وجبت يا نبي الله لولا أمتعتنا به.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤١).

(٢) عند الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء (١/٥٢٦).

(٣) يعني: أن يطيل الله عمره ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٤) البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٤١٩٦) وصحيح مسلم كتاب الجهاد والسير (١٨٠٢).

وذلك لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يَعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قال لأحد: «يرحمه الله» وكان في غزوة فإنه سَيُسْتَشْهَدُ، فلم يَنْهَ صلى الله عليه وآله وسلم عمر رضي الله عنه عن سؤاله، ولم يُجبه لأن الأمر كان مقضياً، واستشهد عامر رضي الله تعالى عنه.

فهذا صريح في التوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحرمَتُهُ صلى الله عليه وآله وسلم ميتاً كحرمته حياً، ويجوز التوسل بذاته وجاهه عند الله بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم حيٌّ بحياة أقوى من الحياة الدنيوية؛ كما تقدمت الأدلة على ذلك.

*** توسل الصحابة رضي الله عنهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته:**

توسل العباس رضي الله عنه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في استسقائه للناس في خلافة عمر رضي الله عنه:

أخرج البخاري في صحيحه[1]، عن أنس رضي الله عنه، أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قَحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبيّنا فاسقنا) قال: فيُسقَون.

وأخرج الزبير بن بكار في الأنساب ما ملخصه: أنه في عام الرمادة - وسمي بذلك لِمَا حصل من شدة الجدب فيه فاغبرّت

(١) في كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قُحِطُوا (١٠١٠).

الأرض جِدّاً من عدم المطر ـ خَطب عمر رضي الله عنه في الناس فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدوا أيها الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عمّه العباس، واتخذوه وسيلة إلى الله تعالى.

فقدّم عمر رضي الله عنه العباس للدعاء، وآثره على نفسه لقرب ومكانة العباس من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فدعا العباس رضي الله عنه فقال: (اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يُكشف إلا بتوبة، وقد توجّه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث).

وفي رواية: (واحفظ اللهم نبيك في عمّه).

فأرخت السماء مثل الجبال، حتى أخصبت الأرض، وعاش الناس[١]. وأقبل الناس على العباس رضي الله عنه يتمسحون به ويقولون: هنيئاً لك يا ساقي الحرمين[٢].

ومعنى قول عمر رضي الله عنه: (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا) أي: كنا نتوسل إليك بخروجه بالناس إلى المصلّى، ودعائه لهم، وصلاته بهم، وإذ قد تعذّر ذلك علينا بوفاته عليه الصلاة والسلام، فإني أقدّم مَن هو مِنْ أهل بيته ليكون الدعاء أرجى للقبول والإجابة.

وفي دعاء العباس رضي الله عنه توسّل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال: (وقد توجّه القوم بي إليك لمكاني من نبيك ـ أي:

---

(١) وذكره في فتح الباري (٢/٤٩٥) وعزاه للزبير بن بكار.

(٢) انظر الاستيعاب لابن عبد البر وأسد الغابة.

لقرابتي منه ـ فاحفظ اللهم نبيك في عمه) أي: اقبل دعائي لأجل نبيك وإكراماً له.

*** تعليم عثمان بن حنيف رضي الله عنه أحد التابعين بأن يتوسّل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لقضاء حاجته:**

روى الطبراني والبيهقي، عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه، أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له، فكان عثمان رضي الله عنه لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمانَ بنَ حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حُنيف: ائت الميضأة فتوضأ، ثم ائت المسجد فصلِّ فيه ركعتين ثم قل: «اللهم إني أسألك وأتوجّه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجّه بك إلى ربي فيقضي لي حاجتي» وتذكر حاجتك، ورُحْ إليّ حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان رضي الله عنه، فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان رضي الله عنه فأجلسه معه على الطنفسة، وقال: حاجتك؟ فذكر حاجته، فقضاها له.

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف رضي الله عنه فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلمتَه فيّ.

فقال عثمان بن حنيف رضي الله عنه: والله ما كلّمته، ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأتاه رجل ضرير، فشكا

إليه ذهاب بصره، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ائت الميضأة فتوضأ ثم صلّ ركعتين، ثم ادع بهذه الكلمات» فقال عثمان ابن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل عليه الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط[1].

*** أما التوسل بالحق الذي حقّه الله سبحانه على نفسه لأنبيائه وأوليائه :**

فاعلم أنه ليس للعباد حقّ واجب عليه سبحانه ، ولكنه تعالى قد يُحقّ على نفسه كما قد يوجب على نفسه، وكما قد يحتّم على نفسه، أو يكتب على نفسه، ولا أحد مِنَ الخلق يوجب عليه جلّ وعلا.

قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقد يُحرّم سبحانه على نفسه كما في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي»[2].

وقد يوجب على نفسه جلّ وعلا كما قال سبحانه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

وكما في الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «يا معاذ هل تدري ما حق الله على العباد وما حقّ العباد على الله»؟

---

(١) أصل الحديث في سنن الترمذي، كتاب الدعوات (٣٥٧٣) والقصة عند الطبراني في معجمه الكبير والصغير وصحّحه، ينظرِ مجمع الزوائد (٢/ ٢٧٩) والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١٦٧).

(٢) طرف من حديث طويل رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

قال: قلت: الله ورسوله أعلم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإن حق الله على العباد أن يَعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذّبهم»[1].

وفي رواية: «أن يغفر لهم ويدخلهم الجنة»[2]. فهذا الحقّ حقّه تعالى على نفسه فضلاً وكرماً.

ومن ذلك قوله تعالى فيما حقّه على نفسه لأنبيائه من النصرة والتأييد: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١].

فيجوز أن تقول: اللهم إني أسألك بحق نبيك. أي: الحق الذي أوجبته على نفسك تفضلاً وكرماً.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لَما ماتت فاطمة بِنْتُ أسد رضي الله عنها أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وكانت قد ربّت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجلس عند رأسها وقال: «رحمك الله يا أمي، كُنْتِ أمي بعد أمي» وذكر ثناءه عليها، وتكفينه لها بقميصه، وبِبُرْدٍ فوقه، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم أمر بحفر قبرها، قال: فلما بلغوا اللحد حفره صلى الله عليه وآله وسلم بيده، وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ

---

(١) الحديث في المسند (٥/٢٢٨) وصحيح البخاري كتاب الجهاد والسِّير (٢٨٦٥) وصحيح مسلم كتاب الإيمان (٣٠) وسنن ابن ماجه (٤٢٩٦) واللفظ له.

(٢) المسند (٥/٢٣٤).

دخل صلى الله عليه وآله وسلم واضطجع فيه ثم قال: «الله الذي يحيى ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقِّنْهَا حجتها، ووسِّع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين مِن قبلي فإنك أرحم الراحمين»[1].

ومما ورد في التوسل بالحق الذي حقّه الله على نفسه: أن يقول المؤمن إذا أراد الخروج إلى المسجد: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق مَمْشَايَ هذا»[2].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون
والحمد لله رب العالمين

* * * * *

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط مجمع الزوائد (٩/٢٥٦)، والحاكم في المستدرك (٣/١٠٨)، وأبو نعيم في الحلية (٣/١٢١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٢١) وابن ماجه في كتاب المساجد والجماعات (٧٧٨).

المحتوى

الموضوع الصفحة

وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً
والحمد لله ربِّ العالمين



كتب فضيلة الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه

* حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .
* حول تفسير سورة الحجرات .
* حول تفسير سورة ﴿قٓ﴾ .
* حول تفسير سورة الملك .
* حول تفسير سورة الإنسان .
* حول تفسير سورة العلق .
* حول تفسير سورة الكوثر .
* حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
* تلاوة القرآن المجيد: فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .
* شهادة لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ ـ فضائلها ـ معانيها ـ مطالبها.
* سيدنا محمد رسول الله ﷺ: خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة .
* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية .
* التقرب إلى الله تعالى: فضله ـ طريقه ـ مراتبه .
* الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها .
* الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها .

* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.
* الدعاء: فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
* حول ترجمة الشيخ الإمام محمد نجيب سراج الدين الحسيني .
* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
* الإيمان بالملائكة عليهم السلام ـ ومعه بحث حول عالم الجن .
* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار .
* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
* أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .
* مناسك الحج ـ ومعه أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .
* الصيام: آدابه ـ مطالبه ـ فوائده ـ فضائله .

* * * *

من آثار الشيخ الإمام رحمه الله تعالى (المطبوعة)

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم (الجزء الأول والثاني والثالث).
* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم .
* محاضرات حول الإسراء والمعراج: آثاره ـ فضائله ـ أسراره.
* محاضرات حول هجرة رسول الله ﷺ.
* محاضرات حول الفضائل المحمدية ﷺ.

* * * *

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح

حلب : أقيول أمام جامع أسامة بن زيد رضي الله عنه

هاتف : ٣٢١٧٣٠٠ ـ ٣٢٢٤٩٠٠